جيمس هيلتون

عذراء وثلاثة رجال

رواية

ترجمة

د. نظمي لوقا

الكتاب: عذراء وثلاثة رجال (رواية)

الكاتب: جيمس هيلتون

ترجمة: نظمي لوقا

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E- mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

هيلتون، جيمس

عذراء وثلاثة رجال / جيمس هيلتون، ترجمة/ د. نظمي لوقا،

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٣٥ ص، ١٨*٢١ سم.

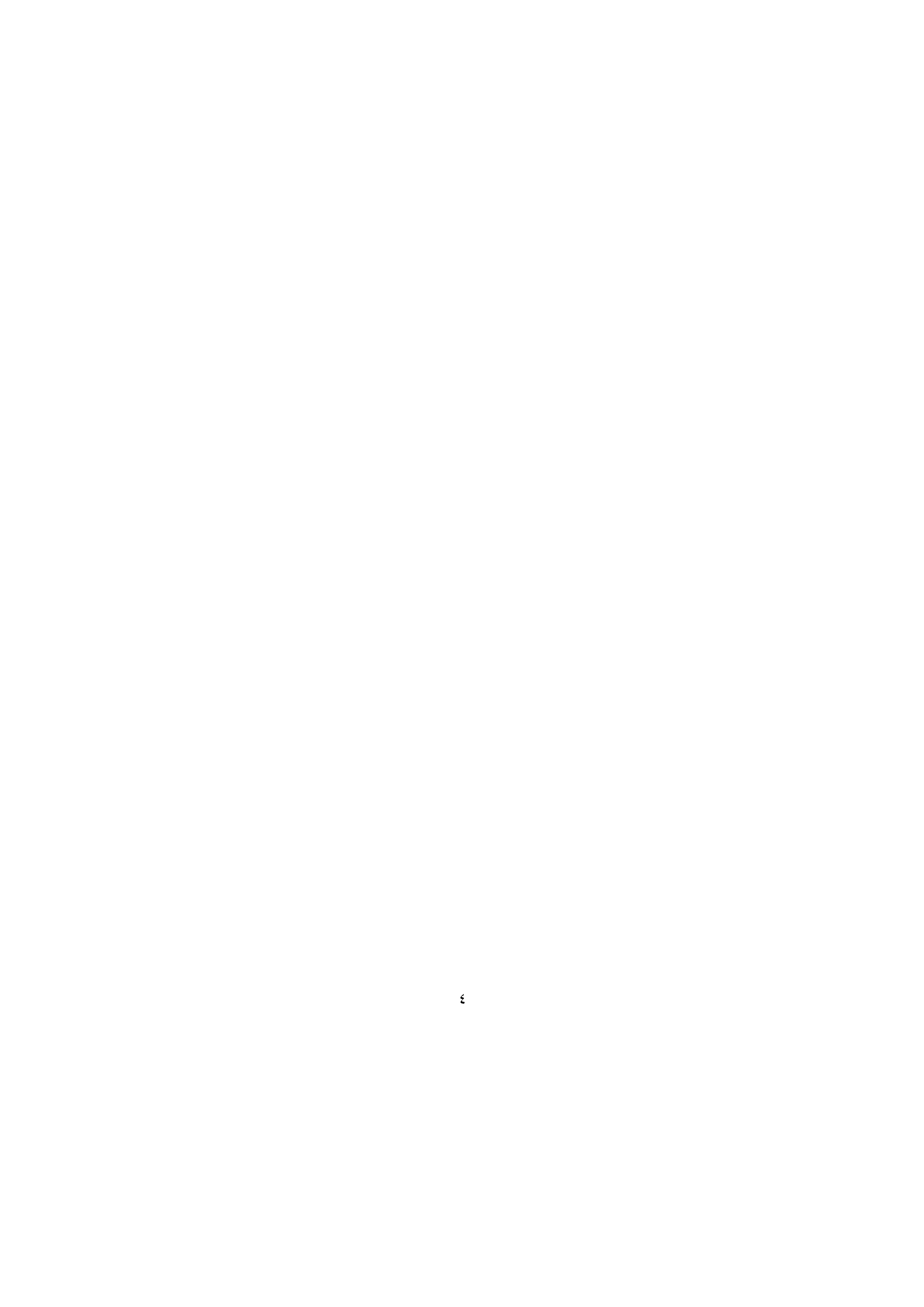
الترقيم الدولي: ٢ – ٦٨٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٥١٦٧ / ٢٠٢٣

عذراء وثلاثة رجال

رواية





مؤلف الرواية

مؤلف هذه الرواية كاتب انجليزي معاصر، إذ كانت ولادته في لانكشاير – وهي مقاطعة انجليزية– في سنة ١٩٠٠ للميلاد.

وقد تلقى جيمس هيلتون تعليمه الجامعي في جامعة من أعرق الجامعات الانجليزية، وهي جامعة كمبريدج؛ وكان ملحوظ التفوق والألمعية في مدة الدراسة، وهو من هذا الوجه يعتبر شبيها ببطل قصته "كونواى".

وبلغ من نبوغه أن جريدة المانشستر جارديان قبلت نشر أعماله وهو بعد طالب بالجامعة، ومنحته عنها أجراً، وذلك تقدير غير قليل، إذا علمنا أن المانشستر جارديان ليست جريدة محلية تنسب إلى مانشستر فحسب، بل هي من أكثر الصحف البريطانية العامة اعتبارا وأوسعها انتشاراً.

ومن باب المانشستر جارديان دخل جيمس هيلتون باب الصحافة والأدب، وكان عمله في الصحافة الأدبية ملحوظاً من القراء والنقاد، إذ عهدت إليه الديلي تلغراف فيما بعد بمهمة محرر النقد الأدبي للروايات، وهي وظيفة لا يعهد بها في الصحف البريطانية المحترمة إلا من رسخت أقدامهم في الفن الأدبي، واستقرت الثقة بأذواقهم وحسن وزنهم للإنتاج الأدبي المستفيض في تلك البلاد.

ونستطيع أن نعرف مقدار الحرج الذي كان من الممكن أن يقع فيه المؤلف وهو يعمل ناقدا أدبيا في الصحف الكبرى، إذا قدرنا أنه هو نفسه من مؤلفي القصص، فهو يعرف ذلك الفن معرفة من اصطلى بنار الإنتاج، لا معرفة المترف المتفرج؛ وقديما قيل أن النقد يسير هين، أما الإنتاج فعسير شاق؛ ومؤلفنا قد عرف العلمين، فلا يمكن أن يرمى بتلك، ولكن أيمكن اتهامه بالتعصب لمدرسة معينة في الأدب الروائي مثلاً؟

هذا أيضا كان جيمس هيلتون بريئاً منه، وإلا لما نجح في النقد الأدبي، وقد استمر يعمل في ميدانه سنوات طويلة إلى أن تفرغ لكتابة القصص بعد ذيوع شهرته فيها ذيوعاً عظيماً .

وتعد رواية "الأفق الضائع" **١٩٥٥** من الدعائم القوية التي قامت عليها شهرته العالمية، وضربت في توزيعها أرقاما قياسية في أمريكا وانجلترا على السواء، ومن ثم أقبلت عليها شركات السينما، وأخرجتها على الستار الفضي، كما أخرجت روايته الأخرى "وداعا مستر شبس".

ونقدم لهذا القصصي البارع هذه القصة الممتعة "عذراء وثلاثة رجال"، وهي كغيرها من روايات هذا الأديب القصاص العالمي، تستحوذ على لب القارئ منذ بدايتها حتى نهايتها، وقد استطاع جيمس هيلتون أن يحلل في هذه الرواية الشائقة شخصيات الرواية تحليلا دقيقا، وأن يكشف عن أعمق أعماق العواطف البشرية.

ومنذ سنة ١٩٣٥ استقر جيمس هيلتون في أمريكا، واحترف كتابة القصص السينمائي العاصمة الشاشة الفضية "هوليوود".

أشخاص الرواية

– فرينشام Frensham ثري من محبي المغامرات، جمع ثروته من المشروعات المالية الناشئة ومن المناجم والمضاربات.

– مارجريت Margaret ابنته، ذات تفكير هادىء، وصلابة وطباعها أقرب لطباع الرجال.

– بومي بوميروي Pommy ابنه، طيب كثير الاعتماد على غيره، ضعيف البنية في صباه، موظف دبلوماسي.

– ليلى Leila ابنته الصغرى، جميلة، عادية الذكاء، محبة للهو، ومفتونة بالتبرج.

– اوين بينجلى Owen Bingley رجل H عمال استغلالي من غلاة المحافظين، قوي الشخصية، محب للسيطرة، وضد كل حقوق الطبقة العاملة، زوج ليلى.

– بولين برينويت Pauline Bradithwite من الطبقة العامة، ممرضة متطوعة في المستشفى العسكري، تزوجها بومي.

– لوفل Lovell صانع نابغ، ومخترع مكافح.

– كارول Carroll جندي أمريكي فنان.

- **فرجيسون :**Fergusson **طبيب الاسرة**.
- **دارنت :**Daurent **سائق وسائس**.
- **مينشن :**Minchin **ساقي الأسرة العجوز**.

الفصل الأول

أسبوع

ما من شك في أن ذلك الأسبوع كان أسبوعاً يستحق أن يوصف بالجمال والروعة؛ كانت مرجريت يومئذ توشك أن تبلغ الحادية والعشرين من عمرها، وهي متوجهة في العربة التي تجرها الجياد الرشيقة إلى محطة بادينجتون بعد أن أتمت أول زيارة لها لمدينة لندن، وخامر مارجريت الاحساس بأن هذا الأسبوع الجميل لم يكن ينقصه شيء، اللهم إلا أن يكون معهما بومى، فلو تم ذلك لكانت الروعة بالغة حد الكمال.

وكان العبير اللطيف المنبعث من سيجار مرافقها يتسلل عبر العربة إلى وجهها وأنفها، وكلما رمقته بنظرة جانبية من عينيها، طالعتها من وجهة نظره الرضا الذي يوشك أن يمسي تيهاً وزهواً، فالحق أنهما زعما طيلة هذا الاسبوع بتمضية وقت طيب هنيء.

ومرت العربة أمام دار مدام تيسو، فتذكرت مارجريت كيف استولت عليها الدهشة البالغة، بل كيف أُخذت عندما اكتشفت ذلك الشبه الشديد بين القاتل وينرايت وبين الشاعر لورد تنى، ولكن لندن مدينة حافلة بالأعاجيب والمدهشات.

وكانت مارجريت جالسة وقامتها منتصبة انتصاباً كاملاً، وعقلها يقظان يقظة كاملة كذلك والعربة تدرج بهما، وقبعتها ذات الحافة العريضة مائلة إلى الأمام فوق كتلة من شعر أحمر نحاسي غزير، ومن تحتها عينان عسليتان وبشرة وجه تركت فيها أشعة الشمس أثراً قوياً، فلولا حمرة الشعر وصلابة الفك لظن الناظر أنه أمام فتاة تجري في عروقها دماء أهل الجنوب.

ولم تكن تتكلم إلا قليلاً، ولكن صوتها العريض الفني فيه مرونة تكفل له القدرة على الارتفاع فوق صخب الثرثرة في حجرة حافلة، كما تكفل له القدرة على التسلل إلى الأذن في طبقة الهمس وسط تلك الضجة؛ وعلى الجملة كان كيم فرينشام راضياً كل الرضا عن الأثر الذي تركته مارجريت في دوائر لندن.

ولكن الشيء الذي فاته أن يفكر فيه هو الأثر الذي تركه هو في نفس مارجريت بالذات، فعلى طول الطريق إلى بادينجتون كانت مارجريت مستغرقة في تقليب مشكلة جديدة، هي مشكلة تلك الحياة "الأخرى" المذهلة التي سمح لها والدها أن تلقي عليها نظرة خاطفة، وزادت دهشتها كثيرا وهي تحاول الآن أن تلقي نظرة شاملة تسترجع بها ذلك الأسبوع كله جملة.

ولو أن بومي كان معها لوجدت شخصا تتحدث إليه عن ذلك الأمر، أما الآن وهي وحدها فليس أمامها إلا أن تقلب الخواطر، وتعيد تقليبها في ذهنها الحائر.

لقد كانت تعلم بالطبع أن والدها كان طول حياته معدوداً بين الأثرياء، وأنه بلا ريب ذو أصدقاء كثيرين لم تكن تعلم عنهم شيئاً؛ ولكن مع هذا أذهلها ذلك الاستقبال الذي تلقتها به دوائر المجتمع اللندني، ففي كل قاعة استقبال، وفي كل ملعب من ملاعب التمثيل، بل في كل ركن تقريباً من أركان الشوارع الكبرى كان الكل يهتفون به:

– مرحى! أهلا بك يا كيم!

ولم تكن تعرف هذه الكنية لوالدها قبل هذا الاسبوع، فرأى لذلك أنه ينبغي أن يوضح لها الأمر:

– أطلقوا علي هذه الكنية لأنني منذ بضع سنوات جنيت شيئاً من الثراء عن طريق استثمارات في كيمبرلي، فهناك مناجم للماس كما تعلمين.

بيد أن هذا التوضيح لم يقلل من دهشتها وحيرتها، كانت مندهشة لأن هذا الرجل الذي كان يتحدث على سجيته التامة مع الفلاحين في الحقل أو في الجرن، يتكلم على سجيته التامة أيضا

وبنفس الأسلوب إلى الدوقات على مائدة العشاء.

ومهما يكن من شيء فهي تشعر بالسعادة بعودته الآن معها إلى أولئك الفلاحين وإلى الحقول والأجران، فلما سألها والعربة تمشي بهما فوق بلاط الشارع قرب المحطة:

– أآسفة أنت على مغادرة لندن يا مارجريت؟

هزت رأسها هزة يسيرة جداً، كأنها في شك من أسفها على الإنتهاء من تلك الرحلة السحرية. واستطرد والدها يقول:

– لقد فكرت في أن اتخذ لي بيتا في لندن في السنة القادمة.

فسألته بشيء من الدهشة:

– بيتاً لنا كلنا ؟

– لكل من استطاع أو شاء الحضور، وربما استطاع بومي أن يأتي إلى ذلك البيت في فترات للزيارة، وسيأتي على كل حال ثلاثة أشخاص، هم أنت وليلى وأمكما .

فقالت بتحفظ:

– هذا إذا قررت أمي المجيء.

– آه، نعم، يجب أن نبذل جهدنا في اقناعها، فقد يجدي عليها تبادل الهواء، وأنت تعلمين أني دعوتها للمجيء معنا هذه المرة، ولكنها أجابتني بأني لم أعرفها بتلك الرغبة قبل السفر بوقت يكفيها للإستعداد، ولذا بقيت في الدار.

فهزت مارجريت رأسها هزة من تدرك الظروف وتقدرها، واعتصمت بالصمت إلى أن دخلت العربة فناء المحطة، وقفز الأب هابطاً إلى الأرض، ثم أعانها على النزول، فشعرت عندئذ بما كانت تشعر به دوماً في الأمكنة المزدحمة من زهو شديد لوجودها معه؛ فهو فارع الطول، ضخم القامة، وسيم، أسمر الوجه، تزينه سالفتان بلون رمال الشاطئ، وكل حركاته وتصرفاته توحي بالعظمة والأبهة، وأزهاها كرمه، فكأنه أمير من الأمراء في عطيته الكريمة للحوذي، وفي أمره للحمال بأن يذهب بالحقائب إلى القطار المسافر صوب شيبينج نورتون؛ وبلغ زهوها وافتخارها به غايته – حتى لقد طفرت الدموع فعلاً إلى عينيها– وهو يأخذ بيدها معتمداً على ذراعه مخترقاً بها فناء المحطة.

ولما اقتربا من كشك الصحف والكتب وضع في يدها نصف جنيه ذهبا وقال لها:

– اشتري لنفسك شيئا تقرأينه في الطريق، لأنني قد لا أستطيع أن أتحدث إليك كثيراً أثناء الرحلة، فقد رتبت الأمر بحيث يقابلني هنا رجل ليسافر معنا، ويقضي في بيتنا بضعة أيام، رجل اسمه مستر لوفل.

وبعد ساعة من الزمن كانت تحملق والوسن يداعب جفنيها من خلال النافذة، وقد أخذ القطار يقترب من ريدينج، وفوق ركبتيها مجلة ذات غلاف أزرق تضم موضوعات جيدة، ولكنها أسفت لأنها لم تجد فيها قصة من تلك القصص المدهشة التي يقوم بالبطولة فيها شارلوك هولمز.

ولا شك في أنهم سيضطرون لتغيير القطار في محطة شيبينج نورتون، ولكن ذلك أفضل على كل حال من الاستمرار في اختراق مقاطعة جلوسستر، وكم يكون بديعاً ورائعاً لو أمكن الطيران في الهواء بواسطة آلة من الآلات، ففي المجلة مقال عن شيء من هذا القبيل، وزعم كاتب المقال أن إنسانا ما أفلح في تحقيق هذا الحلم في مكان ما بأمريكا!

وبين الحين والحين كان يطرق سمعها عالياً فوق ضجة القطار صوت والدها العميق الرنان المرح:

- ولكن يا عزيزي لوفل، خذ حذرك، اسمح لي لحظة واحدة أن أراجعك فيما قلت الآن.

وكانت للرجل الغريب طريقة خاصة فيها ثقة وحماسة وهو يقول:

– أؤكد لك يا مستر فرينشام، أنا متأكد، أنا واثق.

وكان أكبر منها، لقد قدرت له عمراً يقرب من خمسة وعشرين عاماً.

ولم تكد تحدث فترة صمت بين أحاديث الرجلين المتصلة، إلى أن آن الثلاثة أن يغادروا القطار كي يركبوا قطاراً جانبياً بطيئاً، وعندئذ التفت إليها والدها، وأبدى لها عن أمله ألا تكون أحاديثه المتصلة مع ضيفه الشاب قد أضجرتها، فابتسمت وأجابته أنها في الحقيقة لم تكن مصغية بأي وجه من الأوجه إلى ما يقولان، فانفجر الأب ضاحكاً بصوت مرتفع وهو يدس ذراعيه في ذراعيهما ليسيروا على طول رصيف المحطة وقال للشاب:

– لعمري يا لوفل هذه تحية لك! فهذه السيدة الشابة لم تعرك سمعها! وهذا ميزان نزيه لقيمة أفكارك!

فاحمر وجه الشاب إحمراراً شديداً، ونظر إليها فيما خيل إليها – بشيء من التوسل– وعندئذ أشار أبوها إلى القطار الذي كان عليهم أن يستقلوه وقال لها:

– هذا يا مارجريت شيء ربما طاب لك أن تعلمي أنه صار من مخلفات الماضي، لقد أصبح البخار مقضياً عليه، وفي مدى عشر سنوات سنكون جميعا راكبين قاطرات تسير بالبترول نمخر بها الشوارع والطرقات!

فهتف الشباب متحمسا:

– سيحدث هذا حقا يا مستر فرينشام! أنا على يقين من هذا!

وكانت هذه أول مرة تتفحصه فيها بنظرها وحواسها تفحصنا دقيقا واعيا، فإذا به طويل عريض الكتفين، وعيناه حالكتا السواد، لاسعتان بوميض خاطف تكاد حماستهما ترمي بالشرر، وكانت سحنته كلها تدل على صفة واحدة تنم عنه هي "اللهفة".

واستطرد الوالد يقول وهم يدخلون مقصورة في القطار البطيء:

– هيا الآن يا لوفل أتمم كلامك، فأنا على أتم الاستعداد للإصغاء حتى ولو لم تكن مارجريت مستعدة لذلك، ولعلك قادر أن تقنعني أنك

بذلت في ذلك جهداً كافياً؛ فأنا على كل حال مهتم بالموضوع اهتماما فوق المألوف، استمر إذن في عرض الفكرة يا ولدي، هيا!

واستأنفا الكلام والمناقشة والمجادلة والإفتراض إلى أن توقف القطار في محطة جانبية صغيرة، وكان الظلام قد أخذ يقترب، فخيمت عتمة الغسق، ولما نزلوا وجدوا في انتظارهم دارنت في العربة الكبيرة، تعبث يده بقبعته، وهو يتقدم لحمل الحقائب، وقد شُد إلى العربة فرسان بيضاوان تعرفهما جيداً، فإحداهما طبق القشدة، والأخرى زهرة الحقل، وكانت صورة العربة وفرساها وسائقها كافية لإبراز إحساس مفاجئ لديها، هو الاحساس بالموطن. .الموطن بكل ما يكتنفه من إعزاز وحنين وجمال، لا يشاركه فيه أي موضع آخر.

وسألته مارجريت:

– هل أمي بخير يا دارنت؟

وأجابها الرجل بلهجته الإقليمية الظاهرة التي تنسبه عند سامعه على الفور إلى إقليم جلوسستر شاير:

– على حالها المألوف يا آنسة.

وبعدئذ انطلقت العربة بثلاثتهم، وكانت مارجريت أثناء سير الفرسين مدى الأميال الخمسة، تتمنى بينها وبين نفسها ألا يتخذ أبوها ذلك البيت الذي حدثها عنه في لندن، لأنها شعرت برغبتها التامة في أنها لا تريد

مفارقة هذا الاقليم، الذي تسفيه الرياح وتراوحه بما فيه من وديان منعزلة، وتلال عارية تختلف ألوانها بين الخضرة والحمرة، وحيث أيما رجل مر بهم على الطريق يلمس قبعته، لا لمسة الذلة والزلفى، بل عن سرور قلبه بمطالعة وجهها ووجه أبيها الأثير لديه .

ولما توقف الفرسان عن ركضهما إلى ضرب من المشي المترفق عند المنحني الكبير، ظهرت الدار العتيقة لعينيها، فألقت مارجريت نظرة ثاقبة على لوفل، لأنه خيل إليه أن العقل يمنع أن يرى إنسان تلك الدار من غير أن يطلق صيحة إعجاب.

وهتفت وهي تشير إلى رسم الدار من بعيد:

– هاى ستاو! آن ستاو في الواقع هو اسم ذلك التل الذي تراه هناك وفوق قمته هذا البرج، ولكننا نسمي الدار أيضاً هاى ستاو!

وكانت الدار قائمة وراء أرضٍ بالوادي على مرتفع قليل في الأرض، ومن ورائها انتشرت التلال وقد ارتسمت معالمها بوضوح خلال أشعة الغروب الاخيرة، وكانت تلك الدار بناء مربعا متين المنظر مشيدا من صخور رمادية اللون، تُرى بكثرة في تلال تلك المنطقة، وكانت في الأصل بيتاً ريفياً كبيراً بعض الشيء، ثم أضاف إليها المالكون أجنحة وأروقة بغير نظر إلى التناسق المعماري، فجاء الشكل النهائي غير خال من جاذبية مصدرها الطرافة.

وموقع الدار رائع ولاشك، ويبدو على بعد كبير للناظر جمال حدائقها التي تشرف من ارتفاعها القليل على بطن الوادي، وقد رصعت أكنافها بألوان ناصعة رائعة يمثل كل لون منها حوضا كبيرا من أحواض زهور الصيف.

وابتسم كيم فرينشام لما أبدته ابنته من حماسة لمسقط رأسها وقال:

– هذا هو مسكني الصغير يا لوفل، وهو ليس داراً عريقة توارثها الآباء عن الأجداد، فأنا لم أمتلكها إلا منذ أكثر قليلا من عشرين سنة.

وما إن أستقبلهم مينشن في البهو حتى ابتدرته مارجريت بذلك السؤال عينه الذي وجهته من قبل إلى الحوذى دارنت، وتنهد مينشن وهو يحمل الحقائب وأجابها تلك الإجابة بعينها:

– ليس هناك تغيير يذكر يا آنسة مارجريت، فقد عاودتها آلام الروماتيزم، ولكني ألاحظ دائما أن وطأة تلك الآلام تشتد مع ظهور كل هلال جديد.

هلال جديد؟ وهل ظهر في السماء الهلال؟ لقد فاتها أن تلاحظ ذلك، وهذا بلا ريب أحد الأشياء التي يفوت الناس أن يفطنوا إليها في لندن..

ولما قاد مينشن الضيف لوفل إلى حجرته التي سينزل بها في الدار صعدت مارجريت مع أبيها إلى الطابق العلوي، وكان هذا الصعود هو الرحلة المعتادة كلما عادا إلى الدار من الخارج، حتى ولو كان خروجهما

لجولة صباحية بين خمائل الحديقة، فما أن يدخلا عتبة الدار وتقع عيونهما على الدرج الكبير حتى يقول هو أو تقول هي:

– أوه! ينبغي أن نصعد الآن لنرى كيف حال ماما .

وكانت هي التي قالت ذلك في هذه المرة، ودخل الاثنان عليها معا، فاخترقا عرض البساط الشرقي السميك حتى مثلا أمام الفراش الضخم المصنوع من خشب الموجنة بأعمدته الأربعة وزخارفه المنقوشة بالحفر في ذلك الخشب الثمين، وستائره القرمزية الحمراء المطرزة بطنف من القصب وأسلاك الفضة.

أجل كانت أمها في فراشها حيث كانت تتوقع أن تجدها، وكانت هناك شمعتان كبيرتان مركبتين في شمعدانين عاليين من الفضة الخالصة، تلقيان ضوءاً مرتعشا فوق جبل صغير من الوسائد الكبيرة والصغيرة، ووسط هذا الجبل ارتسم وجه امرأة يتميز بصغره غير المألوف، ودقة ملامحه، وكان الرأس والشعر مغطيين بطاقية من المحرمات المالطية الفاخرة، تبدو من تحتها العينان ينبعث منهما وميض ثاقب ثابت مستقيم، وميض ورثته مارجريت، ولكنها ورثته مع زيادة في النفاذ والدقة وقوة الوقع في النفس.

وارتفع من بين الوسائد صوت رفيع يسأل بهدوء:

– إذن قد عدتما؟

– نعم يا أماه.

– وكيف وجدت لندن؟

– رائعة أشد الروعة.

– هذا ما قدرت أن يكون عليه رأيك؛ ألم تأتيا معكما بأحد من هناك؟

فتدخل الأب في الحديث، وقال:

– أتينا بصديق لي اسمه لوفل، ومن المرجح أنه يمكث معنا بضعة أيام.

- آه.. فقد خيل إلى أبي سمعت صوتا غريبا يتحدث إلى مينشن في البهو، فلى أذنان مرهفتان، وفي ذلك تعويض لي عن ساقيّ الواهنتين فيما أعتقد!

وسرعان ما دق بعد ذلك الطبل الهندي الذي يقرع إيذانا بالعشاء، فخرج الاثنان من مخدع الأم المريضة، وفيما هما يهبطان الدرج قالت مارجريت:

– يخيل إلى أحيانا أنه ربما كان من الخير لها أن تنهض من فراشها، وتحاول القيام بأي نوع من النشاط العادي.

وأجابها أبوها وهو يعقد ذراعه فجأة بذراعها:

– وهذا ما طالما ألح عليه الأطباء منذ زمن بعيد!

وكانت وجبة العشاء مرحة خفيفة الروح، مع أن الجالسين إلى المائدة لم يكونوا أكثر من ثلاثة. وأتيحت الفرصة لمارجريت كي تسمع بوضوح هذه المرة شيئا كافيا عن طبيعة زيارة الوفل وعن الغرض منها، فهو قد

اخترع شيئا، على ما فهمت من غضون الحديث، وهذا الاختراع طراز محسن مهذب، لآلة تدار بالبترول، وهذه الآلة سيكتب لها على الأقل أن تحدث ثورة كاملة في جميع نظم النقل، في سائر أقطار العالم.

ولم يتحرج شخصيا في التصريح بذلك، وفطنت منذ أول وهلة إلى قدرته الخارقة على عدوى سامعيه بتفاؤله الضخم، ويلوح أن بعض الناس كان الصلة بينه وبين أبيها، على أمل أن يقبل باعتباره رجلاً من رجال المال، أو ربما باعتباره مقامراً مغامراً، التكفل بهذه المغامرة؛ وكان من الواضح منذ الآن أن أباها شديد الاهتمام بهذا الموضوع الجديد.

وسأل فرينشام ضيفه إن كانت هناك آلة تجريبية أو نموذجية تمثل ذلك الاختراع الجديد في أي مكان. فقال له الوفل أن هذه الآلة التجريبية موجودة، ولكنها غير تامة في الوقت الحاضر.

-ولكن هل أستطيع أن أراها؟

– نعم، بالتأكيد تستطيع يا سيدي أن تراها إذا شئت، وهي موجودة في برمنجهام وتحتاج إلى عمل يستمر بضعة أسابيع، قبل أن تعطى أداءاً لائقا يفي بالغرض.

ثم كأنما ضاق لوفل بأسئلة أبيها على اعتدالها الواضح، فانفجر قائلا:

– اسمع يا مستر فرينشام، إني أرى بوضوح أنك لا تريد أن تقدم على شيء من غير برهان عملي، فأنت مستريب بطبيعتك، ولست ألومك

على هذا، ولكني أحب أن أقدم إليك فكرة عما لاقيته من مشاق في سبيل هذا الاختراع، وإخراجه إلى حيز الوجود عملياً، فهناك أولا عقبة الإفتقار إلى المال الكافي، ولكن أدهى من هذا وأمر أنني كنت أفتقر إلى مكان مناسب للعمل، فالمكان الذي كان تحت يدي عبارة عن حجرة صغيرة يكاد حجمها لا يتجاوز حجم صوان الملابس الموجود في بيتك! ولم يكن تحت يدي طريق أستطيع أن استخدمه لإجراء الاختبارات، فلابد أن يكون الطريق منعزلا، فلو أخرجت الإختراع في أي مكان قرب برمنجهام، لتجمع حولي في مدي دقيقتين خلق كثير، لقد كنت طوال الوقت أقاوم التيار من جميع الوجوه، ولا يمكن أن تكون لديك فكرة عن مثل هذا العناء.

فقاطعه فرينشيام قائلا بهدوء:

– لقد جربت في حياتي السباحة ضد التيار في ظروف كثيرة، هذا إذن هو السبب الذي حال دون وجود ثمرة محددة لفكرتك تطلعني عليها، إني أستطيع أن أدرك هذا وأقدره تماما، ومهما يكن من شيء، ففي استطاعتك إذا كان المكان المناسب عائقاً جدياً، أن تحضر آلتك إلى هنا كي تفرغ منها وتتم إنشاءها، وبين الأراضي المملوكة لي عدة أميال من الطرق الخصوصية التي لن يتجمع فيها الخلق مهما بدا لك أن تصنع.

وبعد فترة صمت طويلة غمغم لوفل قائلاً:

– إني مدين لك بأعظم الإمتنان يا مستر فرينشام! وسأحضر آلتي إلى هنا، فذلك العرض الكريم من جانبك سيسهل لي جانباً كبيراً من المصاعب، وإن لم يكن لديك مانع فإني أستأذنك في السفر إلى برمنجهام في بكرة صباح غد، كي أقوم بالتمهيدات والترتيبات الضرورية لوصول أدواتي إلى هنا، ولن تطول المدة بعد ذلك في العمل، فمتى بدأت فيه لن يستغرق مني إتمامه أكثر من عشرة أيام، أو ربما كان أسبوع واحد كافيا إذا حالفني الحظ، وعندئذ ..وعندئذ سترى بنفسك أنني كنت أعني بحق كل حرف قلته لك، وسوف تقتنع بوجهة نظري، أنا واثق من ذلك، وعلى يقين جازم!

فابتسم فرينشام ابتسامة من خبر الدنيا وعلمته التسامح مع المتحمسين وقال له:

– ليكن، وسوف يقوم دارنت بتوصيلك في العربة إلى شلتنهام غداً صباحاً في موعد يسمح لك بركوب قطار برمنجهام السريع من هناك، والآن إن كنت تشعر بمثل ما أشعر به من الإجهاد، فلنذهب إلى مخادعنا لنلتمس في أحضان النوم راحة من عناء.

الفصل الثاني

رحلة

وفي صباح اليوم التالي تولت مارجريت بنفسها قيادة العربية الصغيرة لتوصل لوفل إلى شلتنهام، وكان المفروض أن يقوم دارنت بهذا العمل كما قال والدها بالأمس، لولا أن أمها نبتت لديها الرغبة على حين غرة في التجول بين أزهار الحديقة، وتجوالها – منذ مرضت مرضها هذا الطويل– كان دائما في مقعد ذي عجلات، وهي لا تعهد بمهمة دفع المقعد إلا إلى دارنت، وهكذا أصبح على عاتق مارجريت أن تقود المركبة الصغيرة حاملة الضيف الشاب ليلحق القطار.

ولم تكن مارجريت لتبالي هذه المهمة فهي تحب القيادة، ثم إنها ستجد الفرصة سانحة أمامها لقضاء حاجات شتى في بلدة شيلتنهام، فهذه البلدة حافلة بالحوانيت والناس، وهي من جهة ثالثة تحب أن تقوم بإطلاع الغرباء على معالم المنطقة، وأن ترشدهم إلى المناظر الجميلة والبقاع الطريفة، وأن تنقل إليهم إن استطاعت شيئا من تلك الحماسة العميقة الأثار في نفسها لذلك الريف الحبيب إليها.

ولكن هذا الغرض الأخير لم يكن من اليسير عليها تحقيقه هذا الصباح وهي في صحبة لوفل، لأنه كان في شغل عن حماستها بما لديه من حماسة شديدة لمشروعاته، وقد فطنت إلى ذلك بعد أن تلقت منه إجابات

مقتضبة يسيرة تعليقا على ملاحظاتها بصدد المناظر والمشاهد التي يمران بها، فقالت له بصراحة:

– أعتقد أنك لا تهتم كثيراً ولا قليلا بهذا كله!

- بل أهتم يا آنسة فرينشام كثيرا بما تطلعينني عليه من المشاهد الجميلة، وإن كنت مشغولا في أعماق نفسي بأمور أخرى، فلا تظني أني غير مستمتع بما حولي من جمال، أنه ليروقني كثيراً جداً. بل إنني أكاد أجن من فرط السعادة، فلم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه السعادة في حياتي كلها.

– لماذا؟

فزاد التفاته نحوها وقال:

– لأني أعلم أنني بعد وقت وجيز جداً سأنتهي من إقناعي لوالدك بتبني اختراعي الجديد .

– حدثني عنه، بألفاظ وعبارات في مقدوري أن أفهمها.

وكان هذا هو الموضوع الذي يطيب له أن يخوض فيه، ومتى بدأ تدفق الكلام من فمه، فلا يكون ثمة سبيل إلى وقفه، ووجد لزاماً عليه في هذا الصدد أن يعود بها إلى البداية، ويصور لها طفولته الأولى وصباه، في البيت وفي المدرسة .

وكان لوفل من أهل الأقاليم الوسطى، ووالده رئيس عمال في مصهر، وهو شخصياً كان صبياً يتعلم صنعة نفخ الزجاج في أحد المصانع، وظل مثابراً على هذه المهنة حتى سن السابعة عشرة، وفي تلك السن ضاق ذرعاً بهذه المهنة التي تخنق أطماعه العريضة، فقاده طموحه إلى دراسة هندسة الآلات، ومنذ ذلك الحين وهو يكافح في هذا الميدان حتى الوقت الحاضر، وقد بلغ الآن السابعة والعشرين.

– وفي هذه السنوات العشر ما أكثر الليالي التي بتها على الطوى، لأشترى بثمن طعامي أداة باهظة الثمن لا غنى لي في أبحاثي عنها، وكنت أستيقظ كل يوم في الرابعة صباحا، لأعمل في تجاربى الهندسية قبل أن أتوجه إلى عملي الرسمي في مصنع الزجاج، قضيت هذه السنوات العشر في كفاح قاس، ولكن إذا أعطيتني عشر سنوات أخرى فأني زعيم لك أن تطبق شهرتي الآفاق، أنا واثق أن هذا اليوم سيجيئ حتما!

ولما وجدها لا تعلق على ذلك الكلام بشيء استطرد قائلا:

– أعلم أنك تظنين بي الغرور والإدعاء، وهذا ظن الكثير من الناس بي، ولكن لا حيلة لي في هذا، وشعوري بما أقول شعور صادق لا تزوير فيه ولا ادعاء، ثم لا تنسى أنني ما كنت لأمضى في كفاحي كما فعلت لو لم تكن لدى هذه الثقة الضخمة بنفسي.

وكان ذلك النهار يبشر من بدايته بارتفاع الحرارة. فها هي ذي التلال وهما يقبلان على مشارف شلتنهام تتوارى عن الأعين وراء ضباب

في لون اللبن، وعرضت عليه أن تلقاه بالعربة عند المحطة حين عودته في المساء، ولم تنسه حماسته أن يسألها على سنة المجاملة المهذبة:

- أليس في ذلك إثقال شديد عليك؟

فأجابته قائلة:

- كلا، فهذا أهون بكثير من العودة الآن إلى الدار وإرسال دارنت بالعربة بعد الظهر، وفي استطاعتي إذا قضيت النهار هنا أن أتنقل بين الحوانيت عسى أن أجد أشياء أحب أن أقتنيها، ولي أخت أصغر مني اسمها ليلى تطلب العلم في مدرسة هنا، فلن يثقل على قضاء سحابة النهار على وجه ممتع، أؤكد لك هذا.

وبعد أن ركب قطاره السريع ذهبت بالعربة والجواد إلى أحد الإسطبلات، ثم أخذت تتمشى في الشارع الرئيسي الذي يمتاز بعقود من البناء على جانبيه، تتيح ظلا رطيبا تحت أقواسها، وذكرتها واجهات الحوانيت بحوانيت لندن وواجهاتها، وصعب عليها أن تصدق أنها كانت هناك منذ أربع وعشرين ساعة فقط. فإن كل أبهة ذلك الاسبوع الرائع، وذلك الحشد الهائل من التزاويق والزخارف، بل ومنظر الملكة فيكتوريا العجوز المسكينة في عربتها الملكية الفخمة، كل هذا قد بهت وأصبح من مخزونات ماض لا تكاد تتبينه العين.

وبعد الظهر توجهت لزيارة ليلى في مدرسة خصوصية راقية لبنات الأسر الكبيرة عند مشارف المدينة، وهي بعينها المدرسة التي تلقت هي

نفسها دروسها فيها منذ سنوات. والحق أنها كانت تلميذة صعبة المراس، لقيت المعلمات عناءاً شديداً في حملها على احترام النظام والمثابرة على الدرس، ووجدن عناء أشد في حملها على الاقلاع عن عاداتها المثيرة لاستنكارهن الشديد، فقد كانت ولم تزل تمشي مشية الرجال، وتحدق تحديقا ثابتا قاسيا في الغرباء، ولا تبالي أن تبدي رأيها الصريح في شيء!

أما ليلى فهي على خلافها في كثير جداً من الصفات، فهي ظاهرة الأنوثة بصورة ترضي معلماتها العوانس، ذات أسلوب دمث في التعبير والسلوك والمشي، وهي أيضا أجمل بكثير من أختها الكبرى، وأكثر بشاشة وميلا للمزاح، وكانت الناظرة تقول عنها:

– ليلى فرينشام أجمل فتاة في شلتنهام، ولو أن والدها قام بما ينبغي عليه نحوها لتزوجت زواجاً مرموقاً جداً !

وتلطفت الناظرة فسمحت للفتاتين بتناول الشاي معاً، فوجدت مارجريت أختها ليلى مهتمة جداً بسماع ما ترويه لها عن مشاهداتها في أسبوع اليوبيل الذهبي للملكة في لندن؛ ولما فرغت مارجريت من روايتها، مطت ليلى شفتيها وقالت:

– لم يحسن أبي صنعاً إذ أخذك معه ولم يأخذني، فأنا واثقة أنني كنت سأستمتع بذلك كله عشرة أضعاف استمتاعك، فأنت دائما هادئة ولا أعتقد أنه يمكن أن تهتز أعماقك استمتاعا بشيء، وأعتقد أيضا أنك

راضية كل الرضا بمواصلة الحياة على الأسلوب القديم في هاى ستار، أليس كذلك يا مارجريت؟

فأجابتها بكل هدوء:

– هذا صحيح، ولكنك فيما أعتقد لا تحبين كثيراً حياة الريف!

– بل إني أمقتها.

– إذن سيسعدك أن تسمعي مني أن والدنا يفكر في اتخاذ بيت في لندن في الموسم القادم.

فصفقت ليلى بيديها في جذل شديد وصاحت:

– لندن؟ لندن! أوه يا مارجريت، هل هذا صحيح؟ وستكون ثمة استقبالات ومراقص وارتياد للمسارح و...

ثم كفت عن الكلام فجأة وسألتها في انتشاء:

– خبرينى بربك.. ألم تقع عيناك في لندن على رجال ذوى وسامة وجمال؟

– لم أجعل همي في ذلك.

– ولكن ألم تقع عيناك على أحد؟

– لم أر هناك فيما أعتقد أحداً يضارع أبي وسامة وجمالاً.

فهزت ليلى كتفيها في استياء وقالت:

– أوه !أنت كعادتك تحاولين الظهور بمظهر البراعة، وأنا أكره هذا! أتعرفين أن هناك رجلاً وسيماً وسامة مدهشة وإننا نراه كل يوم تقريباً، لأنه يتمشي على طول الطريق خارج هذه المدرسة في أوقات منتظمة جدا؟ وأظن أنه نقيب في فرقة الفرسان، وله أشهى عينين وشارب، ومنذ أيام كنت أطل من الشرفة فرآني وابتسم.

وبعد ساعة استقبلت مارجريت لوفل عند وصوله، وكانت روحه المعنوية لم تزل عالية، وكذلك كانت معنوياتها أيضا، ولكنهما لم يكثرا في رحلة العودة من الحديث مثلما أكثرا منه في رحلة الذهاب. وأطبقت العتمة عليهما قبل أن يصلا إلى هاى ستاو بوقت طويل، وظهر الهلال عاليا في قبة السماء، فبدت حقول الغلال المترامية كأنها بحار من الفضة.

وبعد فترة صمت طويل ساد بينهما قالت له:

– إنك لم تزل تفكر في اختراعك هذا، أليس كذلك؟

فقال بعد شيء من الروية:

– بلى، أفكر فيه، وأنت فيم تفكرين؟

فأجابته ببساطة وصراحة أذهلته:

– فيك أنت!

وبعد يومين وصلت أدوات عمله من برمنجهام في عدة صناديق كبيرة، فانكب على العمل فورا بهمة ونشاط عظيمين. فكان يبدأ العمل

عادة قبل الساعة السادسة من الصباح، ويظل مثابرا عليه إلى وقت العشاء، باستثناء فترتين قصيرتين للإفطار والغذاء، وكان حريا أن يستمر في العمل بعد العشاء أيضا لو أن فرينشام ترك له فرصة لذلك.

وفي كل ليلة بعد تناول القهوة كان يدلي ببيان عن عمله في ذلك اليوم، في لغة فنية حافلة بالاصطلاحات، فكان من العسير على مارجريت ووالدها أن يدركا على وجه الدقة مراده بالضبط، وكان وميض عينيه يزداد توقدا وهو يتحدث عما أحرزه من تقدم في يومه، فكانت مارجريت تشعر أن بداخله حيوية تمده بقوة جاذبية غريبة.

وذات يوم اشتدت الحرارة، حتى أنه بعد الظهر وقع فريسة للجو الخانق، فانهارت مقاومته وسقط بين ذراعيها وهي واقفة وراءه ترقب ما يصنع، فاضطرت إلى حمله بين يديها حملا بغير مساعدة من أحد إلى خارج العريشة، وارقدته على أرض الفناء الداخلي لحجرة الألبان وحظيرة البقر. فلما أفاق من الإغماء بعد ذلك، ظهرت عليه دهشة بالغة وقال لها:

– لابد أنك قوية قوة خارقة

فأجابته ببساطة قائلة:

– نعم، أنا قوية جدا!

واحمر وجهها احمراراً شديداً تحت نظرة الإعجاب السافر التي طالعها بها، ثم استطردت وأنفاسها تلهث قليلا:

– لقد أسرفت على نفسك في مواصلة العمل رغم حرارة الجو، ويجب عليك الآن أن توقف العمل برهة، على الأقل إلى أن تتلطف أنفاس الهواء بعض الشيء.

وكم أدهشها أنه انقاد لرأيها على الفور، وأجابها وهو مستمر في التطلع إليها بذلك الاعجاب الصريح:

– سأعتبر نفسي في إجازة طول يوم غد إذا شئت ذلك. وربما إذا كان الجو معتدلا، وإذا ..إذا تكرمت أنت ذهبنا معاً لتريني المواضع الطريفة في هذه المنطقة، فأنا واثق أن للطبيعة في هذا المكان مكامن كثيرة للسحر والطرافة.

وكانت مسرورة جداً لما تتوقعه في تلك الرحلة من متعة، ومسرورة جداً لأنه هو الذي اقترحها بادئاً، وكم كان غريباً في نظرها أيضاً أن يعلق بهذه الدهشة على قوتها البدنية الفائقة، حتى أنها الآن فجأة شعرت بقوتها تربو وتزداد في داخلها كأنها نافورة يثور ماؤها بحيث أحست بدمائها تضطرب بتلك القوة الفوارة في عروقها.

وواجهته بنظرات عينيها الثاقبة المستقيمة التي لا تعرف خوفاً ولا تردداً، وقالت بثبات:

– سنتجول في أنحاء التلال، ونتجاوز تل ستاو إلى نورث ليدج ثم نعود مخترقين تل ستاو مرة أخرى.

– سنذهب حيثما راق لك الذهاب.

ولأول مرة رأت في عينيه ذلك الوميض العجيب من غير أن يكون تفكيره منصباً على آلته التي تدار بالبترول.

وفي تلك الليلة دار حديث طويل بينها وبين والداها، فقد صعد الوالد إلى حجرتها بعد أن أوت إلى فراشها، ودار الحديث بينهما في البداية حول لوفل؛ فقال:

– أخبرني مينشن أن الحرارة كانت شديدة الوطأة حتى عجز صديقك عن احتمالها بعد الظهر، ولم يدهشني هذا، فلا ينبغي أن تتركيه يفرط في العمل في هذا الحر، وبهذه المناسبة، ما رأيك فيه يا مارجريت؟

– أستلطفه.

– إن فكرته عن نفسه فكرة رائعة كما تعلمين.

– هذا صحيح.

فابتسم وقال لها:

– أنت طبعا لا يضيرك هذا، ولكنني أخشى أن أمك تشعر فيما يبدو بنفور من نحوه.

– لم أكن أعلم أنها قابلته ولو مرة واحدة.

– وهي فعلا لم تقابله، ولكنها فقط رأته من بعيد حينما كان دارنت يدفعها في المقعد ذي العجلات بين مماشي الحديقة، ولكنها بالطبع كما تعلمين ذات بدوات خاصة، تكره أو تحب بغير أسباب.

وسكت قليلا ثم قال في أسى:

– ولا أظن أن حالتها الصحية آخذة في التحسن، ولو كنت أعرف ما الذي يمكن أن يدخل السرور عليها لما ادخرت في سبيل ذلك وسعا ولا نفقة، فالواقع يا مارجريت أنني بدأت أشعر بالرغبة في الاستقرار، لأنني جمعت من المال ما أريد وطويت صفحة المغامرات من سجل حياتي، والبيت هو المكان المناسب لرجل في مثل سني فأنا الآن في الرابعة والخمسين كما تعلمين، ولكن البيت...

وقطع كلامه وألقى إليها بنظرة خاطفة ثم قال:

– أظنك تعرفين ماذا أعني؟

وردت على نظرته بنظرة فهم وعطف سريعة ولم تتكلم، فالموقف كله كان يبدو حافلا بالسخرية بحيث يصغر ازاءه كل تعليق، فالمرأة التي تزوجت من رجل كأبيها، لا تكترث فتيلا سواء جاء إلى البيت أو غاب عنه الأيام والأسابيع، وسواء أخذها معه في أسفاره أو خلفها وراءه، فلا تسأله أين هو ذاهب ولا من أين جاء، ولا ينهض الألم عذيرا لها في سقوط المبالاة، ولكن فكرة الألم حملت مارجريت على أن تقول:

– أعتقد أن أمي تعاني من الآلام أكثر بكثير مما نتصور فأجابها أبوها بحماسة:

– هذا ما كنت ميالاً على الدوام إلى اعتقاده، ولكن الطبيب فرجيسون يؤكد لي دائما أنها لا تشكو شيئا، وإنما هي أعصابها، ويؤكد لي أيضا أنها لو جمعت أمرها وحملت نفسها على مغادرة الفراش والاختلاط بالناس لتحسنت حالتها تحسناً عظيماً، وما كنت لأقول لك هذا كله لولا أن ملاحظة لك منذ بضعة أيام دلتني على أنك ستنتهين إلى هذا الرأي بنفسك.

– وما القول في الروماتيزم؟

– فرجيسون يقول أن هذا كله من تأثير الأعصاب، ولكن لا تظني بالطبع أنني أحاول التقليل من آلامها بهذا القول، فكل ما هناك أنني أتمنى لو بذلت مجهوداً صادقاً للمقاومة. وأنا مستعد للتضحية بأي شيء في سبيل اذكاء اهتمامها بأي نوع من أنواع الهواية أو التسلية، وكان هذا هو الدافع الأول لي على اتخاذ بيت في لندن.

واستطرد وهو يضع يده الكبيرة بحنان فائق فوق كتفها:

– لقد بذلت خير ما في وسعي في سبيل اقناعها فلم أفلح، ولا أدري إن كان لك أي تأثير عليها، على كل حال أرجو أن تحاولي أنت أيضا، وأنت تعلمين طبعا ماذا أعني.

فهزت رأسها، وعاد إلى وجهه الإشراق وهو يقبلها ويتركها لتنام، ولكنها ظلت تفكر في أمها، ولم تفهم كيف أمكن تلك الأم ألا تهتم بذلك الأب؟ وأخذت تتنسم في الهواء رائحة الصابون والسيجار العطر التي يتركها ذلك الاب الفخم وراءه حيثما يكون، فهو يتألق بالنظافة والوسامة والقوة، حتى أنه يبدو ملكاً بين سائر من عرفتهم من الرجال، وخطر لها أنه ربما كان في سنوات كفاحه الأولى شبيها بلوفل، وأنه لو قُدر للوفل النجاح لأضفي عليه ذلك بهاء شبيها بهاء أبيها ورونقه.

الفصل الثالث

تحت المطر

انهمر المطر مدراراً في صباح اليوم التالي فكان ذلك مثار ضحك كثير بينها وبين لوفل على مائدة الإفطار، ولما جلسا في قاعة الاستقبال حاولت أن توحي إلى نفسها بأنها تشعر بخيبة أمل غير عادية. ونهضت إلى المعزف فأدت عليه قطعة موسيقية بطيئة الحركة هي سوناتا ضوء القمر، وجاء هو فوقف معتمداً بمرفقيه على المعزف، وصح عندئذ بينها وبين نفسها وفي هدوء أنها تستلطف هذا الشاب أكثر مما استلطفت أي شاب آخر في حياتها كلها، ولاحظت فوق هذا أن وجوده لا يشعرها بأي توتر عصبي، بل إنها على العكس تحسن العزف تحت نظراته أكثر من مألوف عادتها. ولما أتمت المقطوعة دارت بسرعة فوق المقعد الدوار، ورفعت إليه وجهها بتحديقها الصريح.

واتجه مجتازا القاعة إلى النافذة، وأخذ ينظر إلى المطر المنهمر بلا انقطاع، وكان المنظر حينئذ رائعا، وتربية الأرض والتلال تبدو وكأنها تشرب الماء بشغف، والأشجار المثقلة بثمارها تهتز أعطافها وهي تتقبل منحة السماء ..وسمعته يقول من غير أن يحول نظره إليها:

– لشد ما أحب المطر!

فقالت على الفور:

– أنا لا أحبه عندما يحول بيننا وبين الخروج.

– وهل من المحتم أن يحول بيننا وبين الخروج؟

وبعد بضع دقائق كانت تواجهه وهي مرتدية معطفه الأبيض اللامع الواقي من المطر، وتقدم إليه مظلة سوداء:

– هذا ماكنت أريد أن أقدم عليه ولكن لم يخطر ببالي أنك تحب السير تحت المطر مثلي.

وبينما هما يسيران في هذه الوحدة تحت المطر حدث مرة أو مرتين أنه تناول ذراعها ليعينها، فكان يضغط عليها.

وخفت حدة المطر برهة وهما يجتازان منعطف النهر، ويخوضان أعشاب البرية موغلين نحو تل ستار الكبير، وتل ستار يبلغ ارتفاعه نحو ستمائة أو سبعمائة قدم، وإن كان يبدو أعلى من ذلك كثيرا، عندما ينظر إليه الإنسان من نوافذ الدار.

وأوحى إليه ما إن تراخي شدة المطر أن يشرعا في الصعود، ولكن في منتصف المسافة عاد المطر إلى الإنهمار بشدة، فأسرعا يجريان للإحتماء منه بين مجموعة من أشجار البلوط النابتة على نتوء في التل، وقالت له وهي تجذبه من يده:

– أنا أعرف مكان هذه الأشجار جيداً، وكثيراً ما كنت ألعب بينها أنا وبومي ونحن طفلان، فسألها متعجبا:

– بومي؟

– نعم بومى، إنه أخي، واسمه الحقيقي بوم روى، ولكننا كلنا نناديه بومي، وكان منذ نشأته غير قوي البنية، ولذا ألحقه والدي بعمل في كاليفورنيا حيث المناخ معتدل دافئ، فهو في سان فرانسيسكو في الوقت الحاضر، في السلك القنصلي.

– أظنكما كنتما لا تفترقان.

– كنا دائما معا، وكان أشقى وقت مر على في حياتي الفترة التي أعقبت رحيله.

وأسرعت تخترق مسافة بين الأشجار، ثم أشارت إلى جذع شجرة ضخمة رأتها هناك:

– أنظر، ها هي ذي الحروف الأولى من اسمينا، نقشناها يوم عيد الميلاد الثامن لبومي بمدية تلقاها هدية في تلك المناسبة، ولابد أن كنت يومئذ في الخامسة من عمري، وتستطيع أن ترى بنفسك كم كنا صغيرين، حتى أن يدينا لم تصلا إلا إلى هذا الارتفاع .

وعلى ارتفاع نحو ياردة واحدة فوق سطح الارض رأي لوفل أربعة أحرف كبيرة غير جيدة النقش: ب. ف، م. ف؛ ونظر لوفل إلى

الحروف الأربعة بإمعان، ثم أخرج بسرعة غريبة مدية من جيبه وسألها باسما:

– هل يجوز لنا أن نضيف الحروف الأولى من اسمينا في هذا اليوم، أم أن ذلك يكون امتهانا لقدسية الذكرى؟ فلننقشهما فوق الحروف السابقة حتى تستطيع أن تحددي مبلغ نمو قامتك منذ ذلك التاريخ، أتسمحين لي؟ دعيني أنقش حروف اسمي نيابة عنك.

وأحست بسخونة الدماء في عروق عارضيها وهي تقول:

– كما تريد!

وأخذت ترقب أصابعه وهي تتحرك فوق جذع الشجرة. وسرعان ما أتم نقش م. ف. ثم تحتها مباشرة ف. ل؛ ثم قال لها:

– اسمي فيليب، وأظن بهذه المناسبة سأناديك في المستقبل مارجريت، أليس كذلك؟

فأجابته على الفور:

– وهو كذلك يا فيليب!

فنظر إليها نظرة ثاقبة كأنما أخذ على غرة وقال:

– هيا بنا يا مارجريت، هيا نتسلق التل، فقد تراخت شدة المطر مرة أخرى.

وكانت شدة المطر قد تراخت فعلاً ولكنه عاد إلى أعنف من شدته الأولى قبل أن يصلا إلى القمة. ومن القمة لم تقع عيناهما على منظر سوى منظر الوادي الممتد ينصب فوقه المطر. وكان برج المراقبة الذي بنى قديماً ليكون من علامات الطريق التي تُشاهد على مسافة كبيرة جداً من جميع الجهات، ينهض شامخا فوق رأسيهما كالديدبان الأسود.

وحدثته عن تاريخ ذلك البرج، وكيف أن سيداً من رجال القرن الثامن عشر جعل منه مرقبا للنجوم، لأن ذلك السيد كان شغوفا بعلم الفلك:

– إن داخله طريف جداً، وهو طبعاً داخل حدود ممتلكاتنا وإن كنا لا نجني منه أية فائدة، ولو كنت أدرى سلفا أننا سنأتي إلى هنا لجئت معي بالمفتاح.

فأخذ يدور حول البرج كأنه حيوان متوحش، أو هذا على الاقل ما خطر لها وهي تراه يغوص في الطين إلى عقبيه ويواجه المطر والرياح، وكأنه لا يحفل بها، وسمعته يغمغم:

– كنت أحب أن أرى ماذا يبدو من الداخل؟

فقالت:

– للأسف لم أفكر في إحضار المفتاح

وبعد قليل سمعته يناديها من الجانب الآخر:

– مارجريت! استطعت أن أفتح الباب، فتعالي وانظري!

فجرت تدور حول البرج، وبعد لحظة كانا معا داخل البرج المظلم الذي تفوح منه رائحة الرطوبة وقد أغلق الباب وراءهما لمنع تسرب المطر. وقالت:

– لم آت إلى هنا منذ زمن طويل، انقضت سنوات طويلة منذ آخر مرة كنت فيها هنا.

– مع بومى فيما أظن؟

– نعم

فواجهها وهو يقول لها:

– وها أنت ذا الآن هنا معي أنا.

فأجابته ببساطة وهي تسبقه إلى الداخل:

– هناك خزانة صغيرة فوق هذه الحجرة كان ذلك العجوز يجلس فيها أمام منظاره المقرب

– هل كان مسناً؟

– لعله لم يكن مسناً في البداية، ولكن هذه الهواية استمرت زمنا طويلا.

– لابد أنه كان إنسانا غريب الأطوار!

– نعم وهناك أساطير كثيرة تدور حوله على ألسنة سكان المنطقة.

وصعدا معا السلم العتيق الذي كان ينخره السوس، إلى أن برزا أخيرا فوق سطح دائري تغطيه الأقذار والتراب بطبقة كثيفة؛ وبعد لحظة صمت قال فيليب:

– لم أعد أستطيع أن أطرد من ذهني صورة هذا الرجل الذي عاش منذ زمن بعيد، وهو يتسلق التل في الليالي الصافية التي تسطع فيها النجوم، كي ينعم النظر في السماء من وراء منظاره المقرب، ياله من عمل موحش!

– يقولون أنه لم يكن دائما بمفرده.

- حقا؟

– هناك كما قلت لك أساطير كثيرة تدور حوله وحول حياته، ويقولون أنه كان من عادته أن يختطف الفتيات الحسان من جميع القرى المجاورة ويأتي بهن إلى هنا في الظلام.

– يختطف... البنات؟

– نعم، وأظنهن كن من فرط الفزع منه ومن الظلام لا يجسرن على إلقائه من فوق التل،كما كنت حرية أن أفعل لو كنت في مكانهن!

وكانت تتكلم بهدوء شديد، وبجد شديد، ومع هذا فكان تعليقه عبارة عن ضحكة حادة ترددت خشونتها في المكان الساكن، ثم قال وهو يتحسس عضلة ذراعها في الظلام:

– أظنك كنت تفعلينها، وأنت قديرة على ذلك!

ومشت خطوات في أرجاء المكان ولكنها تعثرت بذيل ثوبها الواسع فتمزقت أجزاء منه، وأخذا يضحكان في الظلام، لأنها كلما أرادت تخليص ذيل ثوبها من قدميها تمزقت أجزاء منه، وانحنى هو ليحاول تحسس الأضرار التي وقعت، فخيل إليه أن ضجة الرياح والمطر قد زاد وقعها فجأة على أذنيه!

وأثارت حركة يديه في الظلام التراب الذي تراكم على الأرض منذ سنين، فملأت أنفها رائحة غريبة هي رائحة الزمن، ممزوجة على نحو ما برائحة الإثم؛ وكأنما كانت الأعمال الغامضة التي ارتكبت منذ أكثر من قرن في هذا المكان عالقة بترابه، بل ممتزجة بطلاء جدرانه.

وبعد قليل عاد إلى الحديث عن آلته البترولية، وأخذت تصغي لما يقول وقد ازدادت حواسها إرهاقاً، كأنها استشعرت شيئا من العداء أو التقابل بين حماسته وبين رائحة التراب المحيط بهما. كأن ذلك التقابل رمز للمعركة الناشبة بين الخير والشر في العالم، وأحست بنفسها وقد انضمت إلى صفه في تلك المعركة بحماسة شديدة؛ وفي الوقت نفسه كانت تحدث نفسها من غير مبالاة، شأن عقلها الناضج العملي دائما بأنه بعد أيام معدودة سيكون قد أتم عمله، وأعد آلته الجديدة للعرض على والدها، وبعدئذ سيعود بالطبع إلى برمنجهام. بل إنه أعاد على سمعها ما فكرت فيه بألفاظ شفتيه، فقالت له:

– أتعود إلى برمنجهام حتى ولو قرر أبي أن يتولى إنتاج اختراعك وتمويله نهائياً؟

– حتى لو حدث هذا، فلا أظن أني أستطيع أن أستقر بصفة نهائية في داركم، أليس كذلك؟

– لا أظن ذلك ممكناً..

ويظهر أن شيئا ما – حقيقة أو تخيلا– في لهجتها ونبرة صوتها دفعه إلى أن يسألها:

– أتتمنين لو أنني استطعت البقاء في بيتكم باستمرار؟

فأجابته ببطء كأنها تفكر في الأمر جديا:

– لا أدري، فمنذ رحل بومي وأنا أشعر بالعزلة الشديدة، والوحشة أحيانا كثيرة، ولكني استمتعت بصداقتنا كثيراً.

– وكذلك أنا.

وفجأة طوقها بذراعيه القويتين، فقاومت قليلا، ثم أطبقت شفتاه على شفتيها فشعرت بدفء وفورة شديدين، إلى حد الألم؛ ومع هذا كان كل ما خطر بذهنها أن هذه القبلة مسحت كل الآثام التي ترنو رائحتها على البرج العتيق من حولهما، حتى لم يعد لبقايا هذه الآثام أثر.

الفصل الرابع

عاصفة

في ليالي الصيف الطويلة التي أعقبت ذلك اليوم المطير، أمسى من عادتها أن تجلس إلى النافذة المفتوحة في قاعة الاستقبال، عندما يكون فيليب ووالدها مشغولين بالكلام والمناقشة حول مشروعهما المشترك؛ وكانت تلك الأمسيات رقيقة الأنسام، رطبة الهواء هادئة، وكانت جميع الروائح الزكية التي تنبعث من أشجار الحديقة المترامية تتوافد إلى مكانها من النافذة المفتوحة، وتمتزج في خياشيمها برائحة الطباق الذي يتصاعد دخانه من حيث يجلسن الرجلان اللذان تحبهما.

وكان يشق عليها أن تعرف على سبيل القطع أيهما أحب إليها، ذلك أن حبها لفيليب بدا لبصيرتها الواعية وكأنه قد استشرى في كيانها، حتى أمتص وتمثل وتغذى على كل حب آخر أكنه قلبها لإنسان من البشر.

كانت سعيدة ضربا من السعادة بلغ حد الروعة، حتى أنها كانت تغيب عن الوجدان الواعي بما حولها من تفاصيل الواقع المحسوس، وعلى هامش حلمها الجميل كانت تتردد أنغام كموسيقى مواكب التهليل، ولم تكن تلك الانغام إلا مقاطع من عبارات الرجلين ترتفع طبقة أو طبقتين فوق المستوى العادي لحديثهما المتصل، فيقول أبوها:

– على رسلك يا لوفل، يا ولدي !

وعندئذ يطغى على صوت أبيها قول فيليب في حماسة:

– أنا واثق من ذلك يا مستر فرينشام، واثق تمام الثقة!

وكانت تعلم أنها تريده أكثر مما خيل إليها، أو اعتقدت أنها يمكن أن تريد شيئاً أو إنسانا في يوم من الأيام. وكانت حرية أن تذهب إلى أبيها وتنفض بين يديه الحقيقة المجردة، كعادتها منذ كانت في كل شأن من شئونها، لولا أن فيليب كان له في ذلك رأي آخر.

وكان موقفه غريبا في نظرها، لأنها كانت تتوقع منه أن يبدي من الحماسة واللهفة على إتمام هذا الأمر بينهما، مثل الذي يبديه من الحماسية واللهفة بسبب آلته التي تدار بالبترول، ولكنه لم يكن متحمسا لهفان، بل كان هادئاً وحذراً إلى حد كان يسخطها ويثير غضبها، وكانت حجته التي أدلى بها:

– إني أرى على العموم أنه من دواعي الحكمة ألا نخبر والدك بشيء في الوقت الحاضر على الأقل، ولا نخبر أحداً على كل حال بما بيننا، فإن أسرتك ليس من المرجح أن تطير فرحا بمثل هذا النبأ، فليس هناك ما يدعو إذن لاستعجال ظهور العراقيل وهبوب الأعاصير.

– ولكن أبي يحبك حبا عظيما، أنا أعلم هذا!

– نعم يحبني حب الحامي لمن يلوذ بكنفه ويرعاه، ولكنه ليس حب الرجل لشاب يرتضيه زوجا لابنته.

- ولكنه سيحبك هذا النوع من الحب ويرى فيك زوجا لائقا بابنته إذا علم أنني أريدك لي زوجا

فهز رأسه وقال:

– كلما عظم حبه وإعزازه لك يا مارجريت كان ذلك أدعى لكراهته أن يراك تلقين نفسك هدرا على عنق مخترع مفلس.

- ولكنك لن تظل مفلسا على الدوام. أليس كذلك؟

– أنا واثق أنني لن أكون مفلسا على الدوام، ولكن ليس بين يدي الآن ما أعزز به موقفي ومطلبي، وهذا هو السبب في أنني أريد أن أنتظر إلى أن أتم آلتي، وأعرض عليه نموذجا، وعندئذ لابد أن يدرك حقيقة مواهبي، لن يكون له من ذلك مناص.

وذات صباح من أيام شهر يوليو، إذ هي منهمكة في مراقبة فيليب وهو يعمل تحت العريشة، نادتها أمها من شرفتها، فصعدت إليها وقربت من مكانها مقعداً مصنوعاً من القش؛ وقالت وهي تجلس إليها:

– يبدو عليك تحسن ظاهر يا أمي.

– حقا؟

– نعم، أنت أحسن بكثير، وأنا واثقة أنك استفدت كثيراً من الخروج إلى الهواء الطلق في الشرفة اليوم، وليتك تنهضين فتغادرين الفراش كل صباح كما فعلت اليوم!

– أوه!

– أنا وأبي نعتقد كلانا...

وتوقفت عند هذا الحد لأنها أحست بالتسرع وبأنها أساءت معالجة الموضوع، وأنها اندفعت في مفاتحة أمها تلبية لرغبة أبيها بغير كياسة، ولكن ذهنها في الواقع لم يسعفها كثيرا لأنها لم تكن في هذه الأيام تفكر في أمها اطلاقا، بل ولا في أبيها أيضا، الآن صورة فيليب هي التي كانت مسيطرة دون سواها على تفكيرها كله، صورة فيليب وهو واقف أمام مشروع اختراعه، وقد شمر قميصه وأشعة الشمس تنعكس على عضلاته القوية الداكنة.

وتكلمت أمها في موضوعات شتى فترة من الوقت ثم قالت:

– أنا أعرف جيداً يا مارجريت وجهة نظرك أنت وأبيك بشأني، والآن أما وقد رأيت أنتِ من اللائق أن تقدمي إلى النصح، فلعلك تبدين استعداداً لتحمل النصح الذي أرى لزاماً علي أن أسديه إليك.

ولم تجب مارجريت، لأن ذهنها لم يسعفها بأي معنى واضح محدد لذلك الكلام، فكل ما في ذهنها من الوضوح منصب على تلك الصورة الفريدة التي لا شغل لها بصورة سواها.

واستطردت أمها تقول بهدوء:

– ونصيحتي هي دعي مغازلة ذلك الرجل لوفل!

واستيقظ ذهنها دفعة واحدة:

– مغازلة! هل قلت مغازلة؟

– هذا ما قلته.

– لم نكن نتغازل!

– إذن ماذا كنتما تصنعان حتى الآن؟

لا جواب!

– إني أحذرك يا مارجريت من هذا الرجل، فأنا أفهم الرجال، وإن كنت قد لا تصدقين ذلك؛ فهذا الرجل لا يعنيه شيء في الدنيا سوى طموحه ومطامعه.

– ليس هذا صحيحا فأنت لا تعرفينه، وأنا لا أستطيع أن أحتمل سماعك تتحدثين عنه على هذه الصورة! وأنا لا أبالي بما تقولين، فهذا لن يقدم ولن يؤخر.

– آه.. هذا ما قدرته. إذن فكل شيء متفق عليه بينكما؟

– نعم!

– أتظنين أنك ستتزوجينه؟

– بل أعلم أني سأتزوجه!

– أتتوهمين أن والدك سيوافق؟

– ولماذا لا يوافق؟

– أتعقدين حقا أنه سيوافق.

– أنا ..لا أدري ..

– في استطاعتك أن تعرفي الجواب إذا سألته صراحة.

– كان في نيتي أن أسأله رأيه، وكان ذلك في نية فيليب أيضا، ولكننا فضلنا أن ننتظر إلى أن.. إلى أن..

– إلى أن يتأكد من أنه لن يطرد من البيت قبل الفراغ من إنشاء آلته الجديدة.. نعم هذا شيء مفهوم، فالآلة الجديدة لها الاعتبار الأول عنده، لا أنت، ولكني على كل حال قد حذرتك، وهذا كل ما أستطيع أن أصنعه؛ والآن يحسن أن تبحثي عن منشن وتطلبي إليه أن يأتي لدفع مقعدي.

وكان البيت خاليا، لأن والدها كان قد ذهب إلى شلتنهام لقضاء سحابة النهار هناك بسبب بعض أعماله، وقد تولى بنفسه قيادة العربة الصغيرة كما يحلو له دائما أن يصنع في الأيام الساطعة الشمس وفيليب كان تحت العريشة، فشعرت فجأة بتعاسة شديدة، واستولى عليها احساس بأن السعادة الرائعة الصافية التي تمتعت بها في الماضي القريب لا يمكن أن تدوم، وليس مقدرا لها أن تدوم. وخيل إليها أن أشعة الشمس نفسها قد غشيتها كآبة معتمة، فاتجهت إلى نافذة حجرة الاستقبال وأطلت على الحديقة، وعندئذ تبينت أن هذه العتمة ليست وهما، لأن سحابة من ضباب خفيف لبني اللون كانت قد غشيت صفحة السماء كلها. وسكن الهواء وازدادت الرطوبة والحرارة، مما ينذر بهبوب عاصفة من عواصف الصيف.

وغادرت البيت إلى الحديقة واتجهت نحو العرشة، فرأته حيث تركته منصرفا إلى العمل. وهز لها رأسه وابتسم، ولكنه ما كان يبتعد ولو لدقيقة واحدة عن ذلك الهيكل الغريب الشكل من التروس والاسطوانات. وقفزت إلى ذهنها في التو واللحظة كلمات أمها اللاذعة" إنها الآلة الجديدة، هي وحدها لها المقام الأول من اهتمامه، لا أنت" فهل لهذه الكلمة نصيب من الحقيقة؟

وأحست أنها لن تصمد للصدمة لو أن لهذه الكلمة ظلاً من الحقيقة وطغى عليها طوفان من الجزع جعلها تصرخ هاتفة باسمه ثم تنفجر ناشجة بالبكاء، وعندئذ كف عن العمل وقال:

– ماذا جرى يا مارجريت بحق السماء؟

قبل أن يتسنى لها أن تجيب استطرد يقول:

– لا يحق لك أن تبكي، لأنك في الواقع أقبلت في لحظة نجاحي، بعد ساعتين اثنتين سيكون كل شيء على أتم أهبة كي يراه والدك، إنه سيعود الليلة، أليس كذلك؟

فأجابته ببلاهة:

– بلى سيعود الليلة، وأمي قد اكتشفت أمرنا يا فيليب.

– يا إلهي! أتعنين هذا حقا؟ وهل قامت بسبب ذلك مشادة؟

– كلا، كل ما هناك أنها حذرتني منك، حذرتني من الثقة بك، ولكني أثق بك فعلا، يجب أن أثق بك، أليس كذلك؟

– طبعا، طبعا، ولكن أمك.. تعترض طبعا؟

– نعم، فهي تكرهك، ولعلها تكرهني أنا أيضا، فلا أظنها متعلقة بأحد حقا في الدنيا كلها اللهم إلا بومى.. ولكني لا أبالي.. لا أبالي ما يمكن أن يحدث ما دمنا

وقدمت شفتيها إلى شفتيه وتعلقت بعنقه بحرارة، وأسلمت نفسها لأحضانه؛ فأشعلت جذوتها جذوته، فأخذ يقبلها إلى أن شهقت وقد أفرح روعها وقالت له بصوت مضعضع من الإنفعال:

– فيليب، فيليب، أنا لا أريد أن أضيع وقتك الذي يجب أن تصرفه في إتمام عملك، أريدك أن تغدو رجلا عظيماً، أريدك أن تكون طموحاً، ولست أبالي كم من الزمن تقضيه بعيداً عني في صنع آلتك .

فحملق في وجهها متعجبا من قولها، ولكنها استطردت:

– سنكون سعيدين جداً، ستكون أنت سعيداً بآلاتك وأنا سعيدة بأطفالي.. أريد حفنة كاملة من الأطفال، أنا أعلم أنني لا ينبغي أن أقول شيئا كهذا، ولكن لا حيلة لي في ذلك، لا أستطيع أن أمنع نفسي من مصارحتك بما في نفسي، ولكني لا ينبغي أن أضيع وقتك، وعندما يعود أبي إلى البيت الليلة يا فيليب، هل تأذن لي أن أخبره بأمرنا؟

– الليلة؟

– نعم أود أن أفاتحه الليلة، فأمي لم تخبره بما تعرفه بعد، ولكنها قد تخبره، وأنا لا أحب أن يصل النبأ من أحد قبل أن نفاتحه نحن..

– ولكني يا مارجريت أفضل أن ننتظر حتى الغد، فإن الآلة كما ترين قد نجحت نجاحاً عظيماً، وأنا واثق أنه بعد أن يراها سيكون أكثر استعدادا لسماع ما نريد أن نقوله له.

– إني على كل حال أفضل أن أخبره الليلة. أرجوك أن تدعني أخبره الليلة.

– أرجو ألا تفعلي ذلك، فهو خطأ كبير!

– هل تعدني بأن تدعني أخبره غدا؟

– سنخبره كلانا غدا إن أحببت، بمجرد مشاهدته للآلة! الآلة، الآلة، الآلة.

– وهو كذلك إذن، والآن سأتركك لتعمل في هدوء.

ومرت ساعتان دون أن يفرغ من عمله، وفي موعد الغداء لم يظهر له أثر، وجلست تنتظره وقتا طويلاً، ولما يأست من حضوره أسرعت تعدو نحو العريشة كي تأتي به، فقرأت على وجهه أن شيئا ما ليس على ما يرام.

وقال لها أن عقبة صغيرة قد برزت في الطريق فجأة، وأكد لها هوان شأنها، ترس صغير كسر في آخر لحظة وسيقضي فترة بعد الظهر بطولها في صنع ترس آخر، وأنه لا يستطيع إزاء ذلك أن يقتطع وقتاً للغداء.

ولما ألحت عليه أن يتغدى قال إنه لا يجد شهية للطعام، فإن شاءت فلها أن تبعث إليه مع مينشن بشطيرة وزجاجة جعة.

وعندما حان وقت تناول الشاي، كانت صفحة السماء قد ازدادت تلبداً بالغيوم، وبدأت همهمة الرعد تتواكب قادمة من الشرق، فتمنت على الله أن يكون والدها قد بدأ رحلة العودة من شلتنهام، لأنها تعرف

الحصان الذي يجر العربة الصغيرة، وتعلم أنه يهيج وتثور أعصابه حينما يشعر باقتراب الزوابع وقد يجمح.

وانقبض صدرها وعاودها الشعور بالكوارث، وخيل إليها كأنها تمشي بمفردها في بطن واد طويل ممتد، ثم رأت فجأة الجبال على الجانبين تتهاوى ببطء لتنقض فوقها.

وتناولت الشاي في حجرة الاستقبال، وأخبرها مينشن أن أمها أوت إلى فراشها معلنة أنها أسوأ حالا مما كانت، وعلق مينشن على ذلك بقوله:

– إنه الغلال الجديد مرة أخرى يا آنسة مارجريت، ملاحظتي لا تخيب.

وحل وقت العشاء ولم يعد والدها، ولم يفرغ فيليب من عمله، وأحست أنها لا تتحمل طاقة الذهاب إلى العريشة مرة أخرى، فأرسلت مينشن إلى فيليب تخبره بتأخير موعد العشاء إلى حين عودة والدها وعاد إليها مينشن بالرد:

– مستر لوفل يقول إنه سعيد جدا يا آنسة بهذه الفسحة من الوقت مع آلته..

– أما زال المطر ينهمر يا مينشن؟

– قطرات كبيرة تسقط بين الحين والحين يا آنسة، ولكن الغيث سرعان ما ينهمر بعد قليل بشدة، بل أتوقع أن تكون العاصفة بالغة العنف يا آنسة.

وفي هذه اللحظة ومض برق شديد فاخترق نوره الستائر، ثم أعقبته انفجارات هائلة من الرعد القاصف فأجفلت، لكن خوفها لم يكن على نفسها بل على أبيها، وانصرف ذهنها أيضا على الفور إلى فيليب فالحصان سريع الهياج في هذا الجو.

وفجأة وسط هدير موجة أخرى من الرعد، رأت الباب ينفرج عن وجه مينشن الأحمر المتهدل. وقرأت في عينيه أن شيئا ما قد حدث، ومن الغريب أنها لم تفكر في تلك اللحظة إلا في البيت، فخطر لها أن جانبا من أبنيته الخارجية نزلت به صاعقة من البرق وسمعت مينشن يناديها عبر الحجرة بهمس أجش:

– مس مارجريت.. مس مارجريت، لقد عاد السيد.. ولكنه مريض جداً.. وقد حملناه إلى قاعة البلياردو.. ألا تذهبين إليه؟

الفصل الخامس

الصدمة

كان والدها مستلقيًا فوق أريكة وقد تصلبت ساقاه، وتدلى ذراعاه إلى الأرض، وكان مينشن وأحد البستانيين العاملين في الحدائق المحيطة بالدار قد حملاه إلى قاعة البلياردو، لأنها أقرب الحجرات إلى الباب.

والظاهر أنه دخل بعربته إلى فناء البيت، ثم سلم الحصان والعربة إلى أحد عمال الإسطبلات، ثم أسرع الخطو تحت وابل المطر إلى مدخل المطبخ، وهناك رأي مينشن وأصدر إليه بضعة أوامر في لهجة حادة، وكان ذلك أمراً غير مألوف إطلاقًا، وقد دهش له مينشن دهشة عظيمة.

وأسرع فرينشام بعد ذلك مخترقاً الدهليز المؤدي إلى الجزء الرئيسي من بناء الدار، وهناك بالقرب من قاعة البلياردو سقط على الأرض، وقد أصابته نوبة من نوع ما.

كل هذا أخبرها به مينشن وهو يلهث، وقد وقفت شاخصة العينين إلى ذلك الوجه الأحمر المتقلص، الذي لم يعد إلا ظلًا مشوهًا للوجه الذي طالما أحبته، ولم تستطع أن تصرخ، واستولى على ذهنها نوع من الصفاء البارد كصفاء الثلوج المتجمدة، فخطر في ذهنها على الفور خاطر وصاحت:

– يجب أن يذهب أحد لإحضار الدكتور فرجيسون فورًا.

وكان البستاني قد ذهب لإحضار الطبيب بالفعل، أخبرها مينشن بذلك ولكنه في الوقت نفسه قال أيضًا أن الطبيب ربما لم يتمكن من الحضور فورًا بسبب العاصفة، فقالت مارجريت:

– من المستحسن أن نتركه راقدًا هنا إلى أن يحضر الطبيب.

– نعم يا مس مارجريت. و.. وهل.. هل أخبر السيدة؟

فأجابته بهدوء تام:

– كلا، ليس الآن، لأن إبلاغها النبأ لن نجني منه إلا زيادة المصاعب فلننتظر إلى أن يحضر الدكتور فرجيسون أولاً، وأعطني قليلًا من البراندي، ثم اذهب إلى العريشة الملحقة بحظيرة الألبان واطلب من مستر لوفل أن يأتي إلى هنا فوراً!

وخيل إليها أن ساعات طويلة قد انقضت قبل حضور فيليب، وكانت العاصفة قد وصلت إلى أشدها، فلما دخل رأت وجهه ملطخًا بالزيت والمطر، وأشارت إليه إشارة خاطفة كي يلزم الصمت.

وبدا عليه لأول وهلة أنه غير مبال لتجاوز عتبة الباب، ولكنها استدعته وهمست قائلة:

– أبي مريض جدًا فيما أظن يا فيليب، لقد أصيب بنوبة، وقد بعثنا في طلب الطبيب ولكن العاصفة ربما عاقته عن الحضور في الحال فهل تعرف شيئًا في أمور التطبيب؟

فهز رأسه، وحملق في شبه فزع إلى الجسد الملقى على الأريكة ولم يقل شيئاً، فقالت مارجريت:

– لا بأس، ابق معي على كل حال إلى أن يحضر فرجيسون.

وأشارت له إلى مقعد في الناحية الأخرى من الأريكة، ورغم هدوئها الغريب شعرت بخفقة إشفاق عليه، لأن المفاجأة هزت أعصابه فليست له قوتها في مثل هذه المواقف!

وما استطاع أخيراً أن يقوى على الكلام قال متلعثماً:

– كيف حدث هذا؟

فأخبرته ثم جلسا معاً في صمت تام.

انقضت ساعة كاملة إلى أن حضر فرجيسون أخيراً وكان قد ركب أميالاً طويلة تحت وابل المطر. فجعلت قطرات الماء تتساقط منه وهو واقف أمام الأريكة التي يرقد عليها المريض، وفرجيسون طبيب الأسرة العجوز منذ سنوات طويلة، وهو الذي أشرف على ولادة مارجريت وبومي، ولذا كان يهتم بهما اهتماماً أبوياً يكاد يصل إلى رعاية كهنوتية، وقد بادر مينشن بقوله:

– جئني حالاً بكوب من الويسكي.

ثم التفت إلى مارجريت وقال لها:

– أين أمك؟

فأجابتها مارجريت بحدة واضحة:

– إنها في الطابق العلوي، في حجرتها، وقد رأينا أو على الأقل رأيت أنا أنه لا جدوى من أخبارها في هذه المرحلة على الأقل، قبل حضورك.

– آه نعم، ولكن يجب أن تخبريها يا مارجريت، أخبريها فوراً. اذهبي الآن واخبريها ريثما ألقي نظرة على أبيك، وسيعاونني مينشن وهذا الشاب (وأومأ برأسه إلى جهة لوفل) في حمله إلى فراشه بعد ذلك.

وصعدت مارجريت إلى الحجرة المضاءة بالشموع والتي تبدو دائماً رغم الألفة الطويلة مكتظة بالستائر والأبسطة والطنافس المعلقة وكانت والدتها مستيقظة. فقالت لها بغير مقدمات لأنها لا تملك القدرة على التلطف في البلاغ:

– أبي مريض يا أمي، وفرجيسون يريد منك أن تريه فوراً، ولذا يجب أن تنهضي الآن، وسأتولى مساعدتك في ذلك.

وكان هدوء أمها يضارع هدوءها، ولكنهما من نوعين مختلفين.

فكان كل ما قالته الأم:

– يستحسن أن يتولى مينشن دفع مقعدي كالعادة!

فأجابتها مارجريت بحدة واضحة:

– لا يمكنك الآن الاستعانة بمينشن لأنه مشغول بمعاونة فرجيسون وتلبية أوامره، وأستطيع أنا أن أدفع مقعدك.

– وهل تعرفين كيف تحفظين توازن المقعد ذي العجلات عند النزول على السلم؟

– لم أجرب من قبل، ولكني سأحاول.

وقبل أن تبدأ المحاولة فعلًا حضر مينشن وعرض خدماته قائلًا:

– لقد حملنا السيد إلى الطابق العلوي حيث حجرته، ويود الدكتور أن يتحدث إليك في الطابق الأسفل في قاعة البلياردو يا مس مارجريت.

فتركت أمها مع مينشن ونزلت إلى قاعة البلياردو، فوجدت فرجيسون يغلق حقيبته الطبية، ولكنه عندما رآها تدخل صب لها ولنفسه قدحين كبيرين من الويسكي، وأمرها قائلًا:

– إشربي هذا جرعة واحدة ثم اشربي قدحاً آخر بعده، فأنت الشخص الوحيد الذي يتعين عليه أن يتحمل كل هذا العبء فيما أرى.

واستطرد بين جرعات كبيرة من الشراب يقول:

– لن أخفي عليك شيئاً، فالحالة بكل صراحة خطيرة، فمنذ شهرين جاءني أبوك وأخبرني أنه يشعر بآلام غريبة في رأسه، ففحصته فحصاً دقيقاً ثم قلت له "يا فريشام، لابد لك أن تقلع عن التدخين وعن تعاطي الأشربة الكحولية، وأن تعيش حياة هادئة كل الهدوء في المستقبل".

– وماذا كان جوابه؟

– أخذ يسب ويلعن في أول الأمر ورفض الإذعان، ولكن ألححت عليه إلى أن حملته على التعهد بالإقلاع نهائياً عن الطباق والخمر، ولكنه لم ينجز وعده، وكنت أتوقع منه ذلك، لأنه رحل إلى لندن حيث قضى أسبوع اليوبيل المالكي. وهناك طبعاً كان يدخن السيجار ويشرب الخمر كل ليلة، ثم جاءت رحلته اليوم عائدًا من شلتنهام في عربة مفتوحة وسط أسوأ عاصفة عرفناها منذ سنوات، وهذه هي النتيجة!

وكانت مارجريت تصغي لما يقوله الطبيب العجوز وهي واقفة وظهرها إلى مكان المدفأة الخالي من النيران في هذا الفصل من السنة، وهي ترشف الويسكي بطريقة آلية، وأساريرها هادئة كل الهدوء فلما فرغ الطبيب من كلامه سألته:

– أتعتقد أنه سيتحسن؟

فقال لها:

– أرجو هذا!

ولم تفتها الملاحظة، فقالت:

– ترجو هذا ولكنك لا تعتقد أنه سيحدث؟

فترك سؤالها بغير جواب، واستمر في إعداد حقيبته، قائلًا:

– لابد لي من العودة إلى البيت كي أُعد بعض العقاقير التي سيكون بحاجة إليها، وسأعود بعد ذلك مباشرة، في نحو الساعة الحادية عشرة، إذا كانت العاصفة لم تعرقل المسير، ثم أنه ليس أمامنا ما نصنعه في الوقت الحاضر حتى الساعة الحادية عشرة، فلتخلد والدتك إلى شيء من الراحة إن شاءت، أما أنتِ فيجب أن ترسلي في استدعاء أخيك وأختك حالاً، وذلك على سبيل الاحتياط، وبهذه المناسبة من هذا الشاب الذي كان هنا عند قدومي أول مرة؟

– اسمه لوفل.

– ضيف فيما أعتقد؟

ولم يعقب على ذلك بشيء.

وبعد انصرافه عادت مارجريت إلى الطابق العلوي، ودخلت حجرة أبيها فوجدت أمها جالسة في مقعدها المتحرك بقرب فراشه. وكان لم يزل غائب عن صوابه وليس هناك شيء يمكن أن يصنع سوى الانتظار.

وتوقف المطر عن الهطول، وهبت على حجرة النوم رياح ندية دفعت بالستائر، فانكشفت عن صفحة سماء زرقاء داكنة ولكنها حافلة بالنجوم،

وأشارت أمها في ضيق إلى الستائر التي يعبث بها الهواء فقد كانت تكره النوافذ المفتوحة وتسمى كل نسمة ريحاً صرصراً.

ونهضت مارجريت إلى النافذة فأغلقتها وهي تفكر في روعة السير بين الأشجار في ليلة صافية ندية الهواء كهذه الليلة، سماؤها حافلة بالنجوم والهلال تحيط به هالة، ومن الأرض التي أثار كوامنها الغيث، يرتفع عبير الأعشاب مختلطًا بالأزهار التي تتناوح بها أغصان الشجر.

ولم تكن الصورة خالية من فيليب، فلا شك أنه سيجد في تلك النزهة الليلة راحة من عناء التوتر العصبي الذي أصابه على أثر الحادث، فلماذا لا تحمل البرقيات وتصحبه إلى القرية؟ ولابد من إيقاظ الموظفين كي يرسلوا البرقيات، وهؤلاء الموظفون سيتولون إذاعة الخبر على جميع الناس في المنطقة بمجرد طلوع النهار، وسيهز الناس رؤوسهم ويقول القائل منهم:

– بالفرينشام المسكين! أهكذا فجأة؟ في الأسبوع الماضي فقط شاهدته يمر وهو يقود العربة بنفسه وتبدو عليه الصحة الكاملة!

ونظرت إلى أمها، فوجدتها تنظر إليها، فسألتها:

– أتشعرين بتعب يا أمي؟

– اشتدت آلامي، وأظن هذا من أثر الصدمة، ماذا قال فرجيسون؟

– لم يقل سوى أنه لا حيلة لنا سوى الانتظار، وأنه سيعود في الساعة الحادية عشرة، وقال أيضاً أنه ينصحك بالإيواء إلى فراشك إن شئت ذلك.

– أظن أن هذا يستحسن، ولكني لن أقوم بخلع ثيابي، قولي لمينشن أن يأتي لدفع مقعدي.

وذهبت تبحث عنه فوجدته محتقن الوجه، لاهث الأنفاس من تأثير المجهود والمفاجأة، وجاء فدفع المقعد وانصرف بالسيدة المريضة كما تعود أن يفعل منذ سنوات.

وقالت مارجريت لأمها وهي منصرفة:

– سأدعوك يا أماه إذا دعت الحالة لذلك!

وخلت لنفسها برهة، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بثلاثين دقيقة، ولن يلبث فيليب وفرجيسون أن يعودا، وكان فيليب هو الذي عاد أولًا فتركت له فسحة من الوقت لتناول العشاء ثم طلبت من مينشن أن يستدعيه، لأنها قدرت أنه سيشعر بالوحشة وهو بمفرده في الطابق السفلي، ثم لعل الخروج في الهواء الطلق برهة سيفيده.

وطرق الباب برفق ثم فتحه، فلاحظت مرة أخرى توتر أعصابه بصورة غريبة، ووقف عند عتبة الباب إلى أن ذهبت إليه، وقالت له:

– يا فيليب، أفضل أن تبقى معي إلى أن يعود فرجيسون، ولن يطول الانتظار، فهل لديك مانع؟

وجلسا على الجانبين المتقابلين للفراش وأخذا يتحدثان همساً، ونظرت هي إلى أبيها وهو راقد فأدركت أنها لم تفطن من قبل إلى مبلغ ضخامته، وجعلها ذلك تفكر في أمها القصيرة النحيلة، فلا شك أن الناس كانوا يضحكون دائماً من منظر الاثنين معاً، ولكن لابد أن هذا كان منذ زمن بعيد، للأنهما لم يخرجا إلى المجتمعات معاً منذ سنوات كثيرة، أن رأسه وهو على الوسادة يبدو أضخم بكثير من المعتاد، وعروق جبهته وعارضيه زرقاء شديدة الزرقة كأنها توشك أن تنفجر.

وخيل إليها أن الهواء في الحجرة غير كاف، وكان أبوها على عكس أمها يحب الهواء الطلق دائماً، فقالت همساً:

– افتح النافذة يا فيليب، فإن والدتي جعلتنا نغلقها عندما كانت هنا، ولكني أعتقد أننا يجب أن نبقيها مفتوحة.

فنهض وفتح النافذة ثم جلس، ودقت الساعة الضخمة دقة الربع بعد الحادية عشرة، فلا شك أن فرجيسون سوف يعود بسرعة، إن السكون سائد تمامًا، وسوف يصل إلى سمعها حتماً صوت الحصان وهو قادم على الطريق، يبدو لها أنه قد مرت ساعات وهي في الانتظار، ومرت سنوات منذ الليلة الماضية، حينما سارت هي وفيليب معاً على شاطئ

النهر، وكانت الحياة تبتسم لهما، وكل شيء يبدو في عينيها رائعًا، وهمست فجأة:

– فيليب!

فرفع إليها عينين تنطقان بالفزع وقالت:

– فيليب، هل حقًا تحبني؟

– أحبك! نعم بالطبع، طبعاً أحبك!

فهزت رأسها وابتسمت وتركت الصمت يخيم عليهما مرة أخرى، إذا لم يحضر فرجيسون بعد قليل فلابد أن ترسل أحد البستانين للبحث عنه على الطريق.

ولكن فجأة، وبينما هي ترتب في ذهنها ما تصنعه في هذا الصدد، شعرت بحركة خفيفة تصدر عن الفراش؛ وأدركت أن عيني أبيها زايلهما ذلك التحديق الزجاجي المتجه إلى السقف، فهما الآن تصوبان نظرة ثاقبة إلى فيليب، وهمست تقول له:

– انظر، انظر! إنه يفيق!

ثم استطردت تقول بكل لطف:

–كل شيء على ما يرام يا أبي، نحن هنا، مارجريت و ..مستر لوفل .

واكفهر وجه فيليب، وجلس معقود اللسان ساكناً كالتمثال؛ وتعجبت لماذا لم يقل شيئاً ملطفاً لخاطر الأب، وعللت ذلك بأنه لم يزل مهتز الأعصاب من وقع الحادث.

وبعد ذلك حدث صراع لم يكن أمامها هي وفيليب إلا أن يشاهداه من غير أن تكون لهما حيلة فيه، لقد كان أبوها يكافح في سبيل النطق، وأصابعه تتشبث بمفرش السرير في جنون، وكأنه يصارع عدواً خفياً أخذ بمجامع لسانه وحنجرته، ولم تسفر تلك المعركة إلا عن كلمة واحدة مفهومة المقاطع، وهذه الكلمة هي "لوفل"!

وهمست مارجريت وهي تنحني فوقه:

– ها هو ذا هنا يا أبي!

ولكن الصراع كان قد انتهى، واستكان الرجل للرقاد، وقد تلاحقت أنفاسه التي يجد صعوبة شديدة في استجماعها، فقالت:

– يا فيليب، إني أشعر أنه من الواجب استدعاء أمي، نعم إنه يبدو أسوأ حالاً مما كان، ولكن مع هذا اذهب ونادي مينشن وأسرع إلى الباب بيد أنها استوقفته قائلة:

– كلا ..كلا.. لا تذهب الآن.

ثم انحنت مرة أخرى فوق الفراش، وقفزت بعدئذ واقفة حتى أوشكت أن تسقط المقعد على الأرض، وصاحت بصوت أجش:

– أعتقد أن شيئاً قد حدث، لا أظنه يتنفس، كان يبدو عليه أنه يرتجف ..فيليب.. أتستطيع أن تعرف؟

ووقف الاثنان أمام الفراش وتطلعا إلى الرجل الراقد هناك، وكان يبدو هادئاً، وخيل إلى مارجريت أنه عوفي مما كان يشعر به، وأن الساعات التي مرت بها أخيراً لم تكن سوى حلم مزعج، وأنه ينام نوماً عادياً .

ولكن فيليب هز رأسه وقال:

– أعتقد أنه.. هل أبقى هنا إلى أن تستدعي أنت أحداً؟

فقالت بحزم.

– كلا، سأبقى أنا واذهب أنت وآتني بمينشن.

وانهار تجلدها عندما صارت وحدها في الحجرة، ولكنها استردت هدوءها كاملًا عندما عاد فيليب ومعه مينشن.

الفصل السادس

الحقيقة

رحل فيليب إلى برمنجهام في صباح اليوم التالي، تولى توصيله في العربة الصغيرة أحد السياس إلى محطة السكة الحديد، وأثناء الطريق التقت العربة بعربة كبيرة مفتوحة كانت تقل ليلي قادمة إلى الدار، فحدق كل منهما في الآخر تحديقاً شديداً.

لقد سافر لمدة أسبوع إلى أن تنتهي مراسم الجنازة. وقد رأت مارجريت أنها على صواب في هذا القرار، فذلك أنسب تصرف في هذا الظرف.

وأقيمت الجنازة في كنيسة كولد مارستون التي تكاد تقع في ظل تل ستاو. ولم يحضر الجنازة أحد سوى أفراد الأسرة وخدمها، ولعل مراسم الجنازة كانت لا تخلو في جملتها من سخرية خفيفة، لأن كيم فرينشام كان في شبابه من أشد المتحمسين لداروين وهاكسلي عالمي الأحياء المشهورين بعداء الكنيسة لنظرياتهما في النشوء والتطور، وكان "غنوطسيا" أي أنه يؤمن بوجود الله عموماً من غير طريق كتب الوحي والأنبياء، وبطبيعة الحال كان شديد الإغفال للأشكال والمراسم الكهنوتية والكنسية.

وحضر من لندن لشهود الجنازة المحامي باسلو، الذي رأي من الحكمة فتح الوصية بعد الإنتهاء من طقوس الدفن مباشرة.

ونصت الوصية على هبة ضخمة للأرملة التي آلت إليها أيضاً الدار والأراضي المحيطة بها، ونصت كذلك على هبات صغيرة لجهات البر وللخدم وما إلى ذلك، أما الباقي كله فمقسم بين الأولاد، الثلاثة. ولما كان بومي بالغاً سن الرشد فله أن يتسلم نصيبه في التركة فوراً، أما مارجريت فعليها أن تنتظر مدة وجيزة إلى أن تبلغ رشدها.

ولا شك أن فرينشام حين كتب هذه الوصية كان يعتقد أن أمواله المنقولة من أسهم وسندات وما إلى ذلك طائلة القيمة، ولكنه في السنوات الأخيرة مني بخسائر كبيرة نتيجة مغامرات جريئة في عالم المال. فترك وراءه ديونًا كبيرة تستغرق تصفيتها وقتاً طويلاً.

فكأن الأرملة وحدها هي التي ورثت الجانب الأكبر من الثروة.وانتحى المحامي بمارجريت جانباً وأفهمها أن الموقف يحتاج منها الشجاعة كبيرة، وربما كان من المستحسن بيع هاي ستار لمجابهة الديون.

– هذا على الأقل اقتراح يجب مناقشته مع مستر بوميروي عندما يعود إلى الوطن قريباً .

وأصبح الجو – بعد العاصفة– في غاية الاعتدال فبدت الحدائق المحيطة بالدار في أوج فتنتها، وتمنت مارجريت من أعماق قلبها ألا يحتاج الأمر إلى بيع هاي ستاو، ولكنها في الوقت نفسه كانت تشعر بأنه لو

اقتضى الأمر بيع هاي ستار فسيكون افتقادها وحنينها إلى الحدائق المترامية المحيطة بالدار أكثر من حنينها وافتقادها للبناء نفسه، وكانت تعلم أن هذا هو إحساس بومي أيضاً.

وتساءلت فيما بينها وبين نفسها كيف عسى بومي أن يبدو لعينيها بعد غيبته في أمريكا وقد طالت ثلاث سنوات، كم سيسعدها أن يكون بومي معها في البيت كسابق العهد، ولاسيما إذا شعر بالمودة نحو فيليب! ولكنه طبعاً سيحب فيليب، لأنه من العسير على أي إنسان ألا يحب فيليب.

ومع ذلك كانت كراهة أمها له لم تتزعزع بمرور الوقت، ولم يعد اسمه يذكر فيما بينهما كثيراً، ولكن في أصيل الليلة التي كانت تتوقع وصوله فيها من برمنجهام قالت لها أمها فجأة:

– قال لي دارنت أن لوفل سيعود الليلة إلى هنا.

– هذا صحيح.

– أظنك مسرورة لهذا؟

– نعم.

– وما سبب عودته؟

– لقد ترك هنا آلته وأدواته ورسومه.

– آه! ألم يكن في الإمكان إرسال هذا كله إليه؟

– بلى، ولكن هناك موضوعات يجب أن نتحدث فيها نحن الاثنان.

– أنه طبعاً يعرف أننا لا نستطيع الآن أن نستمر في تنفيذ أي اتفاق تم بينه وبين والدك.

– أعتقد أنه يدرك هذا.

– إنني ما زلت عاجزة عن تصور سبب وجيه لحضوره إطلاقاً .

– قلت لك أن بيننا أموراً يجب التحدث فيها.

– أمور تتعلق بآلته الجديدة، هه؟

– نعم، وأمور أخرى أيضاً!

– وعلى الأخص الأمور الأخرى، أليس كذلك؟

فقالت مارجريت بصراحتها المعهودة:

– بلي!

– وهل ما زلت بعد كل هذا الذي حدث مصممة على الزواج منه؟

– لست أرى أي وجه كي يحول هذا الذي حدث بيني وبين هذا الزواج!

ورأت عندئذ أمها تبتسم نصف ابتسامة، وتتحسس صفحة وجهها بمنديل مبلل بماء الكولونيا. وكانت جميع نوافذ الحجرة مغلقة إغلاقاً محكماً، والهواء الساكن الراكد مثقل بروائح العطور المختلفة، التي تختلط فيها رائحة الكافور برائحة الياسمين وغيره من الأزهار العطرة، وكانت

مارجريت تكره هذا الجو الثقيل على الصدر، وكذلك كيم كان يكرهه جدًا.

وتمنت مارجريت أن تدخل ليلى عليهما لأن ذلك من شأنه أن يضع حدًا للمناقشة، فهي لا تشعر بالرغبة في مناقشة أمر فيليب مع أي إنسان، ولاسيما مع أمها؛ ولكن أمها استأنفت فجأة أسئلتها من زاوية أخرى:

– هل أخبرك الدكتور فرجيسون يا مارجريت بسبب وفاة أبيك؟

– قال لي أنه شلل في المخ.

– وما تظنين أنه كان السبب في ذلك الشلل؟

– قال الدكتور فرجيسون أن السبب ربما كان قلقه الشديد ومحاولته اليائسة للوصول إلى البيت بسرعة أثناء العاصفة.

– إنه القلق أو الإنزعاج على كل حال، هل أقر لك بهذا؟

– نعم

– إذن أستطيع أن أخبرك عن إنزعاج أعظم بكثير مما تتصورين، وقد حدث له هذا الانزعاج قبل وصوله إلى البيت مباشرة.

ومالت الأم إلى الأمام في مقعدها ولبثت صامتة لحظة ولكن مارجريت لم تتكلم، وعندئذ قالت الأم:

– لقد رأى صديقك لوفل.

– لوفل؟

وكادت عيناها العسليتان تقفزان من محجريهما وهي تسأل:

– رآه؟ ماذا.. ماذا تعنين بذلك؟

– أعني بذلك أنهما تبادلا الحديث. وكنت جالسة أمام نافذتي فاستطعت أن أسمع حديثهما رغم ضجة المطر والرعد. فلي أذنان حادتان كما تعلمين، وكان كلامهما كان بصوت عال جداً، فهل لم يخبرك لوفل بذلك الحديث ولم يذكر لك شيئاً عنه؟

وسكتت مارجريت فلم تجب، فقالت الأم:

– لقد قدرت أنه لن يخبرك بأمر هذا الحديث، لأني لم أتوقع منه أن يكون صريحاً معك كصراحتك معه!

– دعي هذه المسألة الآن يا أمي، ولكن خبريني ماذا حدث بينهما؟

– سأخبرك بكل ما أعرفه وهو ليس بالشيء الكثير، كان والدك عائداً بسرعة إلى البيت عن طريق باب المطبخ، وكان لوفل معه، فلابد أنهما تقابلا قبل هذه اللحظة، ولم أسمع بوضوح ماذا كانا يقولان، ولكن كان من الجلي أنهما يتشاحنان، وكان من الجلي أيضاً أن موضوع المشاحنة هو أنت.

– أنا؟

– هل هذا يدهشك حقاً؟

– خبريني.. خبريني أي نوع من التشاحن كان هذا؟ هل كانا يتجادلان مجرد مجادلة؟

– لا أستطيع أن أجزم بهذا، وعلى كل حال ينبغي أن أكون منصفة لصديقك، أليس كذلك؟ ولكن إذا كنت تريدين أن تعرفي القصة كلها فلماذا لا تسألين لوفل نفسه عما حدث فعلاً؟

– سأسأله، سأسأله وأنا أعلم أنه سيفسر لي كل شيء.

– بلا شك، ولكن بعد ذلك عندما يكون قد فسر لك كل شيء فلك أيضا أن تسألي نفسك إن كنت تصدقين هذا التفسير.

وقبضت على قبعتها ومعطفها وخرجت تجري من البيت إلى الحدائق لأنها أحست باحتياجها الشديد للهرب إلى الهواء الطلق. ونادتها ليلي من إحدى النوافذ وسألتها أين هي ذاهبة، فأجابتها مارجريت:

– لا أدري!

فأجابتها ليلي بشيطنة:

– أظنك ذاهبة لمقابلة صاحبك مستر لوفل على المحطة؟

فراقت لها هذه الفكرة وقررت أن تذهب لمقابلته على المحطة. ثم تسأله عن ذلك الموضوع بغير لف ولا دوران.

وانتظرته على رصيف المحطة. وكان من المؤلم لها جداً أن يذكرها منظره بأبيها، فهو يشبهه جداً، في البنية والسحنة، وفيه تفتحه للحياة، ولم

يحمل معه إلا حقيبة صغيرة، فلما اقترحت عليه العودة إلى البيت سيراً على الأقدام بطريق مختصرة تخترق الحقول وافق على الفور.

وتحدث في بداية الأمر في موضوعات شتى، موضوعات عامة مثل برمنجهام وحالة الجو وآخر الأنباء الواردة من جنوب أفريقيا، وكأنها كانت تختبره كغريب قبل أن ترفع الحجب بينهما. وأحست أنه يتهيبها قليلاً، أما هي فكانت أكثر من متهيبة مما ستقدم عليه، وكادت نفسها تراودها ألا تفاتحه، وأن تترك الأمور كما هي يكتنفها الغموض. ولكن ما أن اختفت عن أنظارهما أضواء القرية وأوغلا بين الحقول حتى أسرع يضمها إليه ويقبلها، فكان ذلك هو الحافز القوي لها على المصارحة، فقالت له وهي تدفعه عنها:

– يا فيليب، إني أريد أن ألقي عليك بضعة أسئلة، فهل تجيبني عنها؟

فقال لها على الفور:

– طبعاً، سلي أي سؤال شئت ولكن قبليني أولاً!

فأحست أن مرحه مصطنع وقالت له:

– كلا..كلا، أريد يا فيليب أن تخبرني ماذا حدث بينك وبين أبي ليلة وفاته؟

وشعرت به في الظلام وقد أخذ بالسؤال وأبتعد عنها، فعلمت بغريزتها أن أمها صدقتها القول، ولكنها مع ذلك لبثت تنتظر رده على سؤالها بهدوء، وأخيراً صاح متعجباً:

– يا إلهي! ماذا تعنين بهذا السؤال؟

– لا أعني شيئاً، كل ما هناك أني أطلب منك أن تذكر لي الحقيقة كاملة، لقد التقيت أنت وأبي ليلة وفاته، أليس كذلك؟ وحدث بينكما جدل أو نقاش بشأني، وأريد منك أن تخبرني عن هذا النقاش.

فتبدلت حالته فجأة، وفارقه المرح وظهر عليه اليأس، وقبض على ذراعها وصاح قائلًا:

– مارجريت! لم يكن الذنب ذنبي يا مارجريت، أقسم لك على ذلك، لم أكن أعلم أنه عليل بهذه الصورة!

فنظرت في الظلام إلى ملامح وجهة المعتمة وقالت:

– أنا لا أتهمك بشيء.

والحقيقة أن صوته كانت فيه نغمة لم تستطع احتمالها، ولهذا حرصت على أن تكون هادئة كل الهدوء:

– كل ما أريده أن تخبرني في بساطة وهدوء بكل ما حدث!

– أقسم لك أمام الله يا مارجريت أنه لم تكن لدي فكرة.

– أعلم هذا، ولكن خبرني بما حدث.

– أني ..أشعر بخزي شديد.. جداً.

– تكلم!

وتكلم بلهجة عرجاء متعثرة فقال لها أن أباها دخل عليه العريشة وسط العاصفة وسأله بلا مقدمات: "ماذا بحق الشيطان تقصد من تمسحك بابنتي؟"، وكان واضحاً أن هناك من حذره بشأننا فقلت له حقيقة علاقتنا بحذافيرها، فثار ثائرة وسبني ونعتني فيما نعتني به بأني انتهازي، فأخرجني ذلك عن طوري، وكانت أعصابي مرهقة جداً بعد أن ظللت ست ساعات أحاول عبثًا إصلاح كسر في الآلة، فضلا عن جو العاصفة المشحون بالكهرباء، آه لو كنت أعلم أنه مريض!

– أكمل، أرجوك أن تكمل .

– ظل يصرخ بأعلى صوته إنني وغد، وإنني أسأت استغلال كرم ضيافته وما إلى ذلك، عندئذ قلت له اذهب إلى الشيطان، اعترف بهذا.. والحقيقة أنني لم أكن أعلم..

– نعم نعم، أعرف ذلك، ولكن أذكر لي بقية ما حدث.

– بعد ذلك.. ضربني.. بأقصى قوته.. و.. فضربته!

– أنت ضربته؟

– وكيف كان يمكنني أن أعلم يا مارجريت؟ إنه كان يبدو ضخماً قوياً، حتى أنني كنت أعتقد في أعماق نفسي أنه إذا حدث بيننا شجار سيغلبني بقوته الفائقة، ومع ذلك بمجرد أن لكمته – ولم تكن اللكمة قوية جداً– أدركت أن به شيئًا، فأخذ يترنح خارجاً تحت المطر، واتجه إلى البيت. فتبعته لأني قدرت أنه ربما أغمي عليه، واحتاج لمساعدة، وظل طول الطريق إلى المطبخ يصيح ويسبني. وربما أكون أجبته بمثل صياحه وسبابه.. لا أدري ولا أذكر، لأن حالتي كانت في منتهى الفظاعة، ولما دخل البيت جريت عائداً إلى العريشة، هذه هي الحقيقة، الحقيقة الكاملة بحذافيرها. ولا يمكنك أن تتصوري شعوري بعد ذلك عندما بعثت في طلبي، ووجدته راقداً هناك في قاعة البلياردو.

وأحست أنه يوشك أن ينهار، فسكتت ولم تتكلم فاستطرد بحرارة:

– يا مارجريت، أتكرهينني لهذا السبب؟ وكيف كنت أستطيع أن أعلم أنه مريض؟ إن والدتك تكرهني كما أعلم، وفرجيسون يرتاب في أمري، ولكن لابد أنك أنت تثقين بي، يجب.. يجب!

فقالت وهي تشيح بوجهها عنه:

– فلنحاول أن نعالج الأمر بهدوء يا فيليب، وأنت طبعاً لم تكن تدري أن والدي مريض، هذا شيء مفروغ منه، وفرجيسون أخبرني فعلاً أن وفاته كانت متوقعة بصورة فجائية في أي وقت، وأن أي سبب كان كافياً لذلك.

– أي سبب ..ولكنك تعتقدين أنني كنت السبب؟

– على هذا الأساس أعتقد أنك كنت السبب، ألست تدري ذلك؟

سألته السؤال بهدوء تام، ولكن الموقف كان شديد الوطأة عليه، فقال وهو يلهث:

– يا إلهي! هل يمكن أن تصفحي عني؟

وأجابته بهدوئها الراسخ:

– لقد صفحت عنك بالفعل يا فيليب، غفرت لك هذا الذي صنعته به.

– إذن هناك شيء آخر؟

– نعم. أنا لا أدري لماذا لم تخبرني بكل هذا بمجرد حدوثه!

وساد الصمت فترة. ثم قال:

– كان ينبغي أن أخبرك. أعلم هذا. ولكني خشيت أن أسبب لك ألماً.

– ولكنه ألم أقل بكثير من ألمي لأنك لم تصارحني.

– ظننت أنك لن تغفري لي لو علمت..

– كان ينبغي أن تجازف!

– هذا صحيح.

– لقد أخطأت يا فيليب إذ لم تخبرني .

ولم يعد صوتها هادئاً، بل كان يختلج بالانفعال:

– كان من الخطأ أن تجلس إلى جوار فراشه في ساعته الأخيرة، بعد هذا الذي حدث بينكما. وأنت تذكر كيف نطق باسمك وهو يلفظ نفسه الأخير؟ كان لا يزال غاضباً عليك عندئذٍ، وكان ينبغي ألا تكون هناك.

– ظننتك تريدينني أن أبقى معك..

– وهل كنت تظنني أريدك أن تبقى معه لو أنني كنت أعلم الحقيقة؟

– كان ذلك جبنا مني، أعترف بهذا يا مارجريت، لم تواتني الشجاعة على إخبارك بعد الذي حدث!

– أو لم تواتك الثقة بي؟

– كلا.. كلا ليس هذا هو السبب.

فسكتت واستمرت في السير غير مكترثة بإنكاره، فقال بعد قليل:

– وكيف اكتشفت المسألة يا مارجريت؟

– سمعت أمي جانباً من المشاجرة، لأنها كانت عند نافذة الحجرة الغربية.

– أستطيع أن أتخيل ما قالته لك عنى.

فشعرت على الفور ولأول مرة في حياتها فيما تذكر بشيء يجذبها إلى الدفاع عن أمها فقالت:

– لقد كانت منصفة جدًا في الواقع. ثم أنها لو لم تسمع جانباً مما حدث عفواً لما عرفت أنا الحقيقة إطلاقًا، أليس كذلك؟

فأجابها بشراسة:

– إنك ما زلت توبخينني يا مارجريت، إأنك تكرهينني بسبب ما فرط مني! إني أسمع هذا في نبرة صوتك وفي كلماتك، ولا أظن أنك سامحتني ولا تستطيعين أن تسامحيني.

وأزعجها قوله، لأنه كل من بقي لها في الحياة، وحبها له هو السند الوحيد الباقي لها، فتعلقت به فجأة وضمته بشدة إليها، وراحت تقبله بحرارة، كانت تريده، وتحن إليه، ولكن جوع جسدها طغى عليه جوع آخر هو جوع روحها، فقالت وهي تلهث مرتجفة بين ذراعيه:

– تزوجني بربك، تزوجني بسرعة يا فيليب، وبعد ذلك نستطيع أن نلقي بهذا كله وراء ظهورنا، وسأصفح وأنسى هذا كله عندما يضمنا بيت واحد، وتصبح أنت زوجي العزيز! تزوجني بسرعة يا فيليب، فأنا لا أطيق أن أعيش في هذا البيت العتيق الآن، وأريدك أكثر مما أردتك في أي يوم مضى يا فيليب..

فعانقها بحنان وهيام وقد ألهبت عواطفه حلاوة مفاتنها الجسدية، ورائحة شعرها العطرة، ورقة شفتيها الحارتين:

– نعم نعم، سريعاً،، بأسرع ما نستطيع، ولكن لا مال عندي كما تعلمين.

– أنا لا أبالي بهذا، سأعمل، سيعمل كلانا بكل جد، وسأعيش معك في أحقر كوخ في برمنجهام وأحس أنني في الجنة!

– لن يطول بك هذا الإحساس، وسرعان ما تكتشفين أن الإفلاس أبعد ما يكون عن حياة النعيم التي تتخيلينها.

– إذن دعني أكتشف ذلك بنفسي، ولابد أني سأكتشفه على كل حال، لأنه لن يكون لي مال حتى ولو بقيت في الدار ولم أتزوج.

فبدا عليه الاهتمام الشديد وهو يقول متعجباً:

– أوه؟

فسردت على مسامعه دقائق الموقف بعد فتح الوصية ثم قالت:

– فنحن إذن على قدم المساواة الآن، وينبغي أن نواجه الواقع، وأنا واثقة أنك ستغدو شهيراً في يوم من الأيام، واثقة بهذا ثقتك أنت به، وأريد أن أعينك وأعمل لك، فخذني.. خذني معك حيث شئت، وفوراً..

– أنت رائعة!

وكان يعني بهذا دفء شفتيها وضوء القمر الذي ينعكس على الدموع المترقرقة في عينيها وهما يستأنفان المسير.

وكانت أمها جالسة تقرا في حجرتها عندما صعدت إليها لتحييها تحية المساء. وكان كل ما قالته لها أمها:

– إذن فأنت قد أتيت به ثانية يا مارجريت؟

– نعم

– هل سيقيم طويلاً؟

– بضعة أيام، ريثما يحزم أمتعته.

– وهل أخبرك بالحقيقة؟

– نعم.

– وهل طابق كلامه كلامي؟

– نعم.

– أوه؟ هل أعترف بكل شيء إذن؟ وماذا فعلت أنت؟

– صفحت عنه!

الفصل السابع

اكتشاف

لم تر مارجريت فيليب كثيراً جداً كما هو منتظر في الأيام القليلة التالية، لأنه كان يقضي الوقت في العريشة مشغولاً بحزم آلته وأدواته، وهي أيضاً كان لديها عمل كثير جداً يشغل معظم وقتها. وكان لغز شخصية والدها الحقيقية لم يزل مستوليا عليها، فأغراها ذلك للإقدام على فحص طويل دقيق بين أكداس كثيرة من الخطابات والأوراق التي خلفها وراءه.

كانت مارجريت تخصص فترات الصباح لهذا البحث، ولم تخبر والدتها بشيء عنه لأن الفكرة في ذلك كانت فكرتها وحدها، ولم يسفر البحث في أول صباح عن شيء سوى الكشف عن وسائل أبيها المضطربة المتسمة بالفوضى في إدارة أعماله، وفي الصباح الثاني وقعت يدها على آثار عهد أقدم من ذلك فتكشفت لها دلائل إسرافه واندفاعاته المتنوعة.

أما اليوم الثالث فاكتشفت فيه خطابات كثيرة من نساء، وكان عدد هذه الخطابات عشرات بل مئات مكدسة على غير نظام في قاع درج من أدراج مكتب قديم له، ولم تقدم على قراءة هذه الخطابات في مبدأ الأمر، لأن مطالعة هذه الخطابات جعلتها تجفل من التطفل على شئون تبدو عليها الصبغة الشخصية والخصوصية بصورة واضحة، ثم قرأت خطاباً أو خطابين منها ولم تستطع أن تمضي في القراءة أكثر من هذا، لأن السطور بدت لها

غير معقولة وتفوق مضموناتها أشد تخيلاتها إسرافاً، ومع هذا لم يكن هناك مجال للخطأ في التأويل، فتواريخ الخطابات وأختام البريد على مظروفاتها كانت دليلاً دامغاً على صدقها وواقعيتها.

ولم تدرك المغزى الذي تنطوي عليه تلك الخطابات في البداية، فلما أدركته تألمت لذلك ألماً فظيعاً... ألماً شديدًا كألمها عندما اكتشفت سر فيليب؛ بيد أن ألمها في هذه المرة أعمق وأكثر حدة حتى لقد شعرت بغثيان، فخرجت إلى الحديقة، وهامت على وجهها بين خمائلها نصف ساعة وهي تحاول أن ترتب ذهنها، وتستوعب أطراف المسألة حتى لقد كادت في النهاية تشك في وجودها نفسه لفرط نفورها من اليقين بواقع هذه الأمور.

وخرجت بالنتيجة التالية: أنه لم يكن هناك وقت تعيه ذاكرتها منذ ولادتها أو قبل ذلك إلى زمن قريب جداً، لم يكن فيه لوالدها عشيقة. وظل الحال على هذه الوتيرة تلك السنوات، بل لعل الحال كان كذلك منذ ولادة أخيها الأكبر بومي، فكانت هناك دائماً امرأة في مكان ما على صلة بأبيها.

وكثير من هذه الخطابات خطابات حب وغزل، وكثير منها أيضاً لم يكن سوى مذكرات قصيرة لتحديد مواعيد الالتقاء أو أمكنته وما إلى ذلك، ولكن جميع الخطابات تقريباً كانت تحوي من التفاصيل مما لا يدع مجالاً للشك في نوع هذه العلاقات الغرامية.

وإحدى هؤلاء النساء كانت تعيش في بروكسل وتكتب رسائلها بلغة فرنسية عامية مبتذلة، وامرأة غيرها كانت لندنية لم تجد مارجريت بداً من الاعتراف بما في رسائلها من دلائل على ذكائها وقوة شخصيتها، وكان هناك شيء مشترك بين جميع الرسائل التي كتبتها جميع النساء، وهذا الشيء هو هيامهن بأبيها هياماً يبدو قوياً صادقاً لا غش فيه.

وانقضى الغداء وهي في حالة شبيهة بالحلم، وكان فيليب وليلى يتحدثان معظم الوقت على المائدة، وبدا واضحاً أن ليلى مشغولة به وتحاول محاولة اليائس أن تتظاهر بالاهتمام بأشد مشكلات الهندسة الميكانيكية تعقيداً وغموضاً؛ وبعد انتهاء الغداء عادت مارجريت إلى المكتب، فقد كان عليها أن تصل إلى قرار في هذه الخطابات، وماذا تصنع بها.

هل تجمع شتات هذه الخطابات في عناية وتخفيها في مكان ما إلى أن تعمل الصدفة عملها في يوم من الأيام فتعثر بها يد شخص آخر بعد سنوات طويلة؟

كان أكثر ميلها إلى القضاء على تلك الخطابات قضاءاً تاماً، فهي قد استخلصت منها الحقيقة عن أبيها، وليس من المحتمل أن تنساها ما عاشت، نعم يجب أن تعدمها إعداماً!

وأخذت تجمع الخطابات بالعشرات في كل مرة وتلقى بها إلى نيران المدفأة، واستغرق إحراقها وقتاً طويلاً، وكانت الحرارة في ذلك اليوم الحار

من شهر يونيو خانقة، وعندئذ وهي مستغرقة في عملية الإحراق انفتح باب المكتب ودخلت أمها يدفع مقعدها المتحرك مينشن!

وكانت لحظة عصيبة ..

ووقفت مارجريت وظهرها إلى المكتب المفتوح تحملق ببلاهة عبر الحجرة نحو الباب، وابتسمت مسز فرينشام ابتسامة صغيرة غامضة، وأومأت برأسها تصرف مينشن، فلما انصرف قالت:

– إذن فأنت تقومين بإحراقها يا مارجريت؟

وبعد برهة صمت قالت مارجريت:

– إني أتخلص من بعض خطابات أبي القديمة، فهناك خطابات كثيرة جداً، ولا أظن أنها تستحق مئونة الإحتفاظ بها.

– أوه! كلا.. كلا بالتأكيد، وأعتقد أنك تصرفت بحكمة، كل الحكمة، ولكنك نسيت مبلغ ما أتمتع به من دقة الملاحظة، فليس لدي ما أفعله طول النهار سوى الجلوس في مقعد والإخلاد إلى التفكير والمطالعة والمراقبة، وقد عرفت طول الوقت ماذا تصنعين، لقد كنت هنا أمس صباحاً، أليس كذلك يا مارجريت؟

– هذا صحيح.

– والصباح الذي قبله أيضاً؟

– نعم.

– لقد أدركت ماذا وراء ذلك، فلما أبصرت الدخان يتصاعد من المدخنة في هذا الحر الشديد علمت أن تقديري كان صائباً، نعم يا مارجريت، أنت حكيمة جدًا وكتومة، لقد أحسنت صنعاً. – أماه، لا أدري ماذا تقصدين بهذا الكلام بالضبط؟

– ولكني واثقة كل الثقة أنك تدرين ماذا أقصد، إن المحامي باسلو كان يريد أن يقتحم هذه الحجرة ويجرد محتوياتها ويأخذ جميع ما فيها من الخطابات، ولكني أخبرته أنه من الخير أن يتركك تعثرين عليها.

– ولكني مازلت أجهل.. لست واثقة..

– تعنين أنك لست واثقة من أنني أعرف، اعلمي إذن أنني أعرف مع أني أؤكد لك أني لم أقرأ هذه الخطابات، لأنني كنت دائماً أفتقر إلى الإكتراث بأمرها..

– أماه ليتك تكلمينني بوضوح.

– ربما كلمتك بوضوح وصراحة، أما الآن فاجلسي وافرغي من إحراقها كلها، وقربي مقعدي من المدفأة، فإني أريد أن أدفئ نفسي أيضاً بنار هذه الرسائل!

وأطاعتها مارجريت، لأنها وجدت راحة في إنهاء هذا الموقف العصيب والانصراف إلى عمل ما.

وركعت على الأرض ودفعت ببقية الرسائل حفنة حفنة تدسها في النار وهي صامتة.

– والآن يا مارجريت ما رأيك في أبيك؟

وظل السؤال معلقاً في الصمت حتى ثقل به هواء الحجرة الحار، واختلط برائحة العطر الذي تضعه أمها، وبشعاع الشمس الغاربة، ورماد الورق المتطاير، حتى أوشك الغثيان والإغماء أن يستوليا عليها، ولأول مرة في حياتها راودها الشعور بأن الحياة في جملتها لا تستحق عناء العيش على الإطلاق.

وأخيراً أجابتها بقولها:

– لا أدري.

– لقد كانت صدمة لك بلا شك.

فرفعت عينيها إلى أمها وقد ارتسمت فيهما الحيرة وقالت:

– أماه، إني أشعر بإعياء كلما فكرت في هذا، هل هذا صحيح حقاً؟ يخيل إلى دائماً أنني في حلم، وأن ما عرفته غير صحيح!

– كلا يا ابنتي، لست حالمة، وإنما أنت قد استيقظت لتوك من حلم طويل!

– أنا؟

– إنك تبدئين اليوم باكتشاف المعنى الحقيقي للحياة!

– إن كان كنهها أشياء من هذا القبيل، فخير منها الموت، إني إذن حقيقة أن أفضل الموت.

– تفضلينه على مواجهة الحقيقة؟

– أماه لا طاقة لي على الجدل الآن، ولكني أشعر أنه إذا كانت تلك الحقيقة شاقة على الآن، فكيف تراها كانت بالنسبة لك طوال تلك السنوات.. طوال ذلك الماضي؟

– لا تهتمي بهذا، فقد تعودته، وعشرون عاما يا ابنتي زمن كاف كي يألف الإنسان أي شيء.

– عشرن عاما؟ منذ ولادتي؟

– بل وقبل هذا فيما أعلم، كان داء ملازماً له.

– داء؟

– نعم، داء العجز عن الإقلاع عن مخادنة النساء، وهو داء تنتشر أعراضه بين الرجال كما تعلمين، ولكنك طبعاً لا تعلمين فإنك قد بدأت اليوم فقط تتعلمين.. نعم يا ابنتي، كان أبوك رجلاً لطيفاً فاتناً حنوناً سخياً، كانت فيه كل الصفات التي يمكن أن يتمناها كل إنسان.. ما عدا الزوجة!

– أمي، لابد أن الأمر كان شاقاً عليك جداً، كان فظيعاً!

– نعم، في البداية فقط.. ولكن بعد المرة الأولى لم يعد للأمر أهمية، فالرجل لا يستطيع أن يؤذيك من هذا الطريق إلا مرة واحدة، فإنك لا

تستطيعين أن تغفري له ذلك حتى وإن قلت أنك قد غفرت له، وتتوقعين دائماً بينك وبين نفسك، أن يحدث منه هذا الشيء نفسه مرة في كل وقت وحينما يحدث – وهو عادة يحدث – تجدين أنك غير مكترثة لحدوثه.

– وفي حالته هو، يتكرر الحدوث؟

– كثيراً جداً، حتى أنني لم أعد أحصى الأحداث!

– ولكن ما أفظع هذا! لابد أن الناس عرفوا.

– أوه ! كانوا يعرفون.. كانت علاقاته حديث لندن كلها، ولكنه كان يمني نفسه بأني ربما كنت لا أعرف، ولا سيما حين لا أثير ضجة، فقد كان يكره الضجة، ويكره الشجار والخصام وكل ما هو من هذا القبيل، لقد كانت أفكاره بسيطة جداً، بصورة عجيبة، حتى أنه عندما تحدث منذ مدة قريبة عن الإقامة هنا بقية حياته، خامره الإعتقاد بأنني سأرحب به أخيراً وأنا مفتوحة الذراعين! لقد كان رجلاً لطيفًا.. لطيفاً جداً!

– كان هذا هو اعتقادي فيه دائماً!

– نعم، وكان اعتقادك، هذا يريحه؛ أما أنا فلم يكن اعتقادي فيه يريحه، ولذا كان ينأى بنفسه دائماً عنى، ويستريح لابتعادي المستمر عن طريقه، وكان مرضي طبعاً حافزاً للناس على زيادة عطفهم.

– أمي، لا أستطيع أن أتحمل سماع كل هذا.

– ولكنك يجب أن تسمعي كل هذا، لأنها الحقيقة، إني أريدك أن تعرفي طرفاً من الأشياء التي يستطيع رجل من طرازه أن يقدم عليها من غير أن يشعر بأنه يقترف خطأ خاصاً، كان والدك عاجزاً عن الإحساس بالخطأ، كان يعتبر نفسه دائماً كالتلميذ الشقي الذي ينبغي أن يغتفر الجميع له هفواته، وفعلاً كان الجميع يغفرون له هفواته، ولعلهم كانوا يظنونه يفعل ما هو طبيعي أن يفعله رجل مكبل بالأغلال إلى زوجة عليلة مثلي، ولم يعلموا أنني بعد أول مرة وبعد أول اكتشاف، حدث لي انهيار عصبي تركني مقعدة على هذا النحو.

– أماه!

– وكان أبوك شديد القلق علي، وشديد الحدة أيضاً، لأن الرجل المسكين لم يستطع أن يدرك ما هو السبب الذي أدى بي إلى هذا.

وبعد قليل سألتها مارجريت:

– وهل بومي يعرف كل هذا؟

– نعم، أنه يعرف، ولكني لم أخبره.

– ماذا ترى كان شعوره؟

– لابد أن شعوره كان كشعوري، وهو أن الزواج على الجملة شيء فظيع وحقير، وأولئك النساء اللواتي عاشرهن أبوك كن أسعد وأحظى بالحياة مني، لأنهن حصلن منه على كل شيء فيما عدا الوفاء وهو شيء لم

يكن ينتظرنه منه، وهي حياة لا بأس بها بالنسبة لامرأة يمكن أن ترتضيها، أما من هن مثلي ومثلك ..

وقطعت عبارتها وسكتت قليلاً ثم قالت:

– لا تتزوجي يا مارجريت، لأنك تنتظرين ممن يتزوجك أكثر مما يستطيع أن يمنحك إياه.

– ولكن هناك بالتأكيد رجال، فريق من الرجال على الأقل في طبيعتهم صدق؟

– أظنك تفكرين في فيليب؟

– نعم أفكر فيه!

وومضت عيناها وهي تقول ذلك.

– ألست متفقة معي في الرأي يا أماه؟ أنا أعلم أنك لا تحبينه ولكن ألا تظنين أنه طراز الرجل الذي يخلص للمرأة التي يتزوجها؟

– ليس إن تزوجك أنت!

– لماذا؟

– لأنه لا يحبك يا مارجريت إنه مفتون بك فقط، أولاً لأنك بذلت قصارى جهدك لتحمليه على ذلك، وثانياً لأنه لم يجد شيئاً آخر يشغل به فراغه في المساء وهو هنا، إن اهتمامه الحقيقي موجه في المقام الأول إلى

عمله، كل طاقته مصروفة في هذا الاتجاه، كل قوته، أما ما تبقى منه وهو ضعفه، فذلك ما قد يمنحك أو يمنح سواك إياه، إنه يذكرني بأبيك من وجوه كثيرة.

– نعم نعم من بعض الوجوه، أعلم هذا ولكنه لا يشبهه في هذا بالذات، إنه مخلص، أنا أعلم أنه مخلص وأثق به كل الثقة! إني أؤمن به كما أؤمن بأي شيء في الدنيا!

وترنحت واقفة على قدميها، وهي تشعر أن الدنيا كلها قد اختلطت معالمها أمام وجدانها، فلم تبق لها إلا الثقة بفيليب، يجب أن تثق به، يجب.. وإلا فلن تجد شيئاً تثق به في الدنيا!

وغمغمت قائلة لأمها وهي تلتمس طريقها إلى الباب:

– إني أشعر بالإغماء، وسأخرج يا أمي لالتمس الهواء، وسأرسل إليك مينشن.

ورأت فيليب تلك الليلة، وهي الليلة الأخيرة قبل رحيله، لأنه كان مزمعاً أن يسافر في قطار مبكر. وكان من المفهوم أنهما سيتبادلان الرسائل كثيرًا وسيلتقيان ثانية بمجرد إعداد العدة لذلك.

ولم تكن لديه خطط معينة سوى أنه قد يمكث في برمنجهام، فكل شيء يتوقف على عثوره على شخص يمكن أن يهتم بآلته الجديدة، وهي كذلك لم يكن لديها أي تفكير محدد، فلم يكن في وسعها سوي الإنتظار

إلى أن تستقر أمور تركة أبيها، فإن آل إليها شيء ولو قليل من المال مثل إيراد سنوي يبلغ مائة أو مائتي جنيه، فسيكون ذلك كافياً لتمكينها من الزواج من فيليب ومساعدته في اختراعه، أما إذا لم يكن لها شيء على الإطلاق فإنهما سوف يتزوجان ويخاطران بمواجهة الحياة في شجاعة فهذا ما كانت هي مستعدة له، موطنة النفس عليه. وظلا في الليل يتجولان بين خمائل الحديقة التي يفوح عطر أزهارها فيعبق الهواء الندى؛ وجعل يقبلها، يلثم فاها وشعرها ووجنتيها وجيدها، ولكنها كانت تريد أن تتكلم، تريد أن تتكلم عن المستقبل، وتحدثه عن تلك الأشياء التي يمكن أن تزيدهما قربا وتزيد صلتهما توشحا، ولكنه ظل يقبلها، فتركته غير مبالية ما يصنع، وغفرت له ذلك في يسر، لأن الرجال كما تعلم هكذا خلقوا ولكنها تريد أن تتكلم وهو يريد أن يقبل بلا انقطاع، ولتعارض رغبتيهما ظل يتهمها بأنها لا تحبه.

– إنك غريبة الأطوار الليلة يا مارجريت، لست كعادتك، أنت الليلة باردة كالثلج.

فقالت له بهدوء وبساطة وبلا انفعال:

– إني أحبك أكثر مما مضى يا فيليب!

ولكنها كانت تعلم أنه لم يفهمها. وأخيرًا تركته يفعل ما يشاء ومع هذا ظل يشكو من برودها..

وكانت متعبة عندما عادت إلى البيت، فصعدت على الفور إلى حجرة أمها لتحييها تحية المساء، ولم يكن الوقت متأخراً، فلم يزل بينها وبين منتصف الليل نصف ساعة، ولكن أمها كانت قد نامت فوقفت ترقبها وهي راقدة، ولمحت مارجريت صورة الجمال الذي ذوى، وأحست بالجريمة الفظيعة الغريبة التي اقترفها أبوها حين حول ذلك الجمال إلى مرارة، وانحنت فقبلت في أسى عينيها النائمتين، ثم هبطت السلم مرة أخرى على نية التحدث إلى فيليب بعض الوقت، فهي ليلته الأخيرة، وربما ليلته الأخيرة إطلاقاً في هذا البيت.

ولما وصلت إلى البهو رأت باب حجرة الجلوس نصف مفتوح، ومن داخلها جاءها صوت ضحك ولغط حديث؛ صوت فيليب المتحمس الأجش، وصوت ليلى الطفولي الحاد، وكان فيليب قد قال لها شيئاً أضحكها، فأجابته بشيء من نفس الأسلوب.

وكانت مارجريت وهي تعبر البهو تراهما بوضوح من خلال فرجة الباب، وكانت ليلى مضطجعة في استرخاء فوق الأريكة القريبة من النافذة، وكان فيليب واقفاً بالقرب منها منحنياً نحوها قليلاً وهو يبتسم؛ وفجأة انفجرت ليلى تهتز بالضحك، فقال لها شيئاً همساً، لابد أنه كان تحذيراً من ارتفاع صوتها، لأنها أجابته بغير مبالاة:

– أوه! لا يمكن أن يسمعنا أحد، فمارجريت في الطابق العلوي الآن مع أمي، ولا يمكن أن تعود بهذه السرعة وعندئذ انقض فيليب بسرعة البرق وألصق فمه بفمها فطوقت عنقه بيديها.

وتراجعت مارجريت في صمت وسارت مبتعدة. فلم يعد هناك ما تريد أن تراه أو تسمعه، وصعدت السلم مرة أخرى وأغلقت عليها باب حجرتها.

كانت هادئة تماماً. أشد هدوءاً مما كانت في أي وقت من حياتها، لقد كان الذنب ذنب ليلى على الخصوص، لأنها كانت تشجع الرجال دائماً على مغازلتها، ولكن ليس المهم الآن ذنب من هذا، فلا قيمة للأمر كله؛ كل ما هناك أنها تشعر الآن بأن في الدنيا أشياء – وهذا الأمر من بينها– لا يمكن احتمالها، لأنها مستحيلة.

وبعد قليل خلعت ثيابها وبدأت تبكي، إنها تحبه كثيراً جداً، وهي تعلم أنه لم يقصد سوءاً، فهو في هذا على شاكلة أبيها تماماً.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي كان ضوء الشمس يتسلل إليها حين جلست إلى مائدة زينتها الصغيرة وتناولت ورقة وقلما وكتبت الخطاب التالي بجرة قلم واحدة:

"عزيزي فيليب..

"يؤلمني كثيراً جداً في الحقيقة أن أجدني مضطرة لتسطير هذا الخطاب إليك، لأني أعلم أنه سيبدو شديد القسوة عليك بعد كل ما حدث، ولكن

لا حيلة لي، لأني أشعر أن الواجب يقتضيني أن أطلعك على الحقيقة، فأنا لا أستطيع أن أتزوجك، وليس هذا لأني لا أحبك، وليس هذا أيضاً السبب يتعلق بالمال من قريب أو بعيد، بل لأني لا أعتقد أننا سنكون سعيدين معاً. إني شديدة الأسف يا عزيزي فيليب ولا أدري ماذا أقول لك أيضاً، ولكني سأفكر فيك دائماً وأتمنى أن يحالفك التوفيق العظيم في عملك.

المخلصة

"مارجريت"

ورد عليها برجوع البريد برسالة طويلة كتبت على عجل غير متسقة العبارات، زعم فيها – بين ما زعم– أنها تخلت عنه لأنه لم يوطد أمر مستقبله بعد، وأعترف أنه لم يصادف حتى الآن شيئاً من النجاح، ولكن هذا ليس ذنبه، ثم ختم خطابه بأن طلب منها أن تقابله في شلتنهام إن كانت أمها ترفض أن يأتي إلى البيت، وأعرب عن ثقته بأن شيئاً ما قد أُسيء فهمه، ولكنهما يستطيعان التغلب على ذلك بحديث قصير يتم بينهما في أي مكان.

وعلى الفور كتبت إليه الرسالة التالية:

"عزيزي فيليب:

"ينبغي ألا تحضر لمقابلتي هنا، وأعلم أني لا أستطيع كذلك أن أذهب إلى شلتنهام، وفضلاً عن هذا ينبغي أن توقن بأن المقابلة لن تغير شيئاً من عزمي، فليس هناك سوء فهم أو سوء تفاهم، وإنما هناك السبب الذي ذكرته لك في خطابي، وهو أنني لا أعتقد أننا سنسعد معاً أن تزوجنا، ويؤسفني أنك تظن بي أشياء كثيرة لا صحة لها.

المخلصة

"مارجريت"

وعاد للكتابة بأسلوب أكثر انفعالاً فاتهمها بالغدر به لأن اختراعه اكتنفه الفشل حتى الآن، فاعتقدت أنه إنسان لا خير فيه ولا في اختراعه؛ ثم قال لها – فيما قال– "من المؤسف أنك لا تثقين بي وليس لك مثل إيمان أبيك بمواهبي واختراعي".

فكان صدور هذه الإشادة منه إلى أبيها، ومنه هو بالذات من دون جميع الناس سبباً في زيادة تصميمها وهدوء نفسها فأجابته:

"عزيزي فيليب:

"إني أقدر شعورك نحو اختراعك، وإن كنت تظن أني لا أقدر ذلك، والحقيقة أني أؤمن به كما كنت أؤمن به من قبل، وإذا اتضح لي من تصفية التركة أنني أستحق مبلغاً من المال أياً كان، فثق أنني سأقدم إليك من هذا

المال كل ما أستطيع أن أستغني عنه كي تمضي في تحقيق اختراعك وإخراجه إلى حيز الوجود، كما كان أبي يريد أن يصنع، ولكن لا حاجة بنا لأن نلتقي.

المخلصة

"مارجريت"

وجاءها منه بعد ذلك خطاب آخر: خطاب مليء بالسخط والإتهام فأجابته إجابة موجزة:

"عزيزي فيليب:

ولم أستطع أن أفهم شيئاً من خطابك، أو على الأقل لم أستطع أن أفهم مبرراً لما ورد فيه من عبارات، فإن عدت للكتابة إلى بنفس الأسلوب فلن تتلقى مني رداً.

"مارجريت"

وكان واضحاً أنها أغفلت في هذه المرة كلمة المخلصة أو الودود.

وكتب إليها خطاباً آخر ..

ولم ترد!

الفصل الثامن

بعد عشرين عامًا

وقف بومي في قاعة المائدة يضع في طبق أمامه كمية من البيض المقلي المعد للإفطار، وقال لأخته مارجريت:

– هذا شيء صغير وجدته صدفة في أحد حوانيت الطرائف فأنت مغرمة بالألوان الفنية، ولذا طلبت منهم أن ينظفوه ويرسلوه إليك.

وقطعت مارجريت الخيط الذي يضم اللفافة الصغيرة، ثم فتحت الصندوق الصغير الذي بداخلها وكان على شكل قلب من المخمل الأسود. وبداخل الصندوق فوق الوسادة الصغيرة الحريرية، رأت حلقة من البلاتين بها فص أسود عنبري اللون في حجم ثمرة اللوز، حلية بديعة ملفتة للنظر!

وهتفت مارجريت مبتهجة:

– ما أجمله يا بومي! إنه جميل جداً، أليس كذلك؟ وكم هو جميل منك أن تفكر في إحضاره لي!

ووضعت الخاتم في إصبعها وأخذت تنظر إليه معجبة.

– سأحبه كثيراً، انظر! إنه يكاد يضاهي لون شعري!

– إنه من الحجر الكورنيلي، وهو ليس حجراً ثميناً جداً بالطبع، ولكنه مع هذا لطيف وجذاب.

وجلس بومي إلى المائدة، وهو رجل طويل القامة، نحيف مهيب المنظر عن بعد، يبدو أنيقاً جداً في ملابس الرائد العسكري، وكان واضحاً أنه رجل دقيق في حركاته أنيق رقيق في عاداته الشخصية. ومنظره لا بأس به بالنسبة لسنه، وإن كانت ذقنه أصغر قليلاً مما ينبغي، وأنفه أكبر قليلًا مما ينبغي، وفي مقابل هذا كان لون بشرته ناضراً كبشرة الصبيان، وتكوين رأسه جميلاً، وعيناه لونهما مزيج من الرمادي والبني، وشعره شبيه بشعر مارجريت، ولكنه خال من ذلك الطيف النحاسي، فهو أحمر اللون حولت الأيام أطرافًا منه إلى حمرة كالحة تضاهي لون الرمال. أما حين يبتسم، فهو يبدو في أحسن صوره لأن له فماً جميلاً وأسناناً بديعة.

وكانت سلة المهملات إلى جوار مقعده وبين الحين والحين، في خلال الطعام، كان يفض رسائله بخنجر صغير من العاج، ويلقي بالمظروفات الفارغة إلى السلة. ثم ينظر في الخطابات نظرة عاجلة ويضعها على أحد جانبيه، وكانت مارجريت تفعل مثل ذلك برسائلها، ولكن بأناقة أقل منه بكثير، وكانت رسائلها قليلة أما هو فكانت رسائله تزيد على العشرين.

وقال وهو يفض الرسالة الأخيرة:

– لابد أن الناس سيكتشفون عنواني الخاص ويرسلون إلى هنا خطاباتهم المتعلقة بالعمل، وأظنهم يستخرجون العنوان من دليل الهاتف وما

إلى ذلك، وهذا في الحقيقة مما يبعث على الضيق، فبين هذه الرسائل ثلاث أو أربع كان ينبغي أن توجه إلى المكتب.

وانصرف إلى الطعام برهة، ثم أكل ثمرة من ثمار الخوخ، وقال:

– تيدي ليستر كتب ينبئني أن ابنه ستيفن جرح في آخر معركة كبيرة، فهل نحن نعرف ستيفن؟ أنا لا أذكر أنه زارنا هنا، لابد أن أكتب إلى تيدي على كل حال، وهناك رسالة موجزة من ليدي هوجان تطلب أن يقوم أحدنا بافتتاح سوق خيرية في اليوم الخامس عشر من الشهر، فهل لك أن تقومي بهذا العمل؟ فأنا أكره الأشياء التي من هذا القبيل، أما بينج فيقول إنه يقضى وقتاً جميلاً في باريس مع رجال وزارة الحربية الفرنسية، وأنهم سيمنحونه وساماً، وهذا شيء يفرحه كما تعلمين!

وكانت الساعة التاسعة صباحاً ذات يوم بديع من أيام سبتمبر، وحجرة الطعام تغمرها الشمس المشرقة، والحجرة نفسها بديعة تكسو جدرانها أخشاب البلوط السوداء، وبها مدفأة ضخمة كثيرة الزخارف.

وقبل نهاية الفطور دخل الساقي بصحف الصباح التي وصلت في تلك اللحظة فتناول بومي التايمز، وتناولت مارجريت الديلي ميل، وبعد قليل هتف بومي وهو يرفع رأسه عن الصحيفة:

– ما أغرب هذا! هنا نعي لمستر هو باين سميث، فهل هو نفس الشخص الذي قابلناه في مارينباد سنة ١٩١٠؟

ولم تكترث مارجريت وقالت إنه ربما كان هو، وتطلع بومي إلى ساعة معصمه العسكرية ثم نهض قائلًا:

– لابد لي من الذهاب اليوم إلى المصانع، لأنه لابد أن يكون هناك أحد في مدة غياب بينج.

وأخرج من جيبه الجانبي علبة بديعة من الذهب المزخرف بالميناء وأشعل سيجارة مصرية، ثم قال:

– لقد نسيت يا مارجريت أن أخبرك عن نبأ آخر تضمنته رسائلي فهناك خطاب من قوم عرفتهم منذ سنوات في سان فرانسسكو هم آل كارول، ويبدو أن ابنهم الوحيد في الجيش الأمريكي المعسكر هنا بالقرب من أكسفورد، وقد أعطوني العنوان، وأظنهم يتوقعون منا أن ندعوه لزيارتنا.

– أتظن أن ذلك سيضجره؟

– أهم من هذا السؤال بكثير أن نسأل أنفسنا هل ينبغي أن ندعوه؟ يمكننا أن نغامر بدعوته على كل حال، لأن أهله كانوا مثقفين ومن المنتظر أن يكون ابنهم على ما يرام. ولعلني أرسل إليه اليوم سطراً أو سطرين إن تذكرت هذا الموضوع.

ووضع التايمز بعناية تحت ذراعه وابتسم لمارجريت ثم خرج إلى البهو، فتناول قبعته وقفازيه وعصاه، ورد على تحية سائق في ثياب الأنباشي، ثم اتجه إلى السيارة التي تنتظره.

وهكذا بدأ يوم آخر من أيامه المشحونة بالعمل، وفي المساء جلس بومي في مواجهة مارجريت على المائدة الكبيرة، وبينهما أمتار من التيل الأبيض الذي كوي بغير نشا، مساهمة في المجهود الحربي للحلفاء، وسألها كالمعتاد:

– هل الوالدة على ما يرام؟

وأجابته مارجريت كالمعتاد أيضاً :

– كما هي، وقد أخبرتني أنها ستنزل لمقابلة بينج عندما يعود أتراها تحب بينج؟

– يبدو هذا.

– أمن المستحسن أن نقيم مأدبة صغيرة؟

– أظن هذا.

– لن يكون هناك إلا بينج وليلي، وربما أيضاً مسز كلهون والكابتن لورانس!

– هذا حسبنا، فالطاهية لن تستطيع أكثر من هذا.

وأومأ بومي إلى الساقي أن يأتيه بزجاجة أخرى من نبيذ البرجندي، وقال بعد أن ذهب الساقي ليأتي بالنبيذ:

– هذا المخلوق لا يبدو نشيطاً جداً.

– أنه خير ما نستطيع الحصول عليه في الظروف الراهنة.

– بهذه المناسبة قابلت أمس مينشن وأنا خارج من مكتب البريد في القرية بعد الظهر فأخبرني أنه بلغ اليوم التاسعة والسبعين من عمره. شيء لطيف، أليس كذلك؟

– ألم تعطه شيئاً؟

– خمس جنيهات، فلم يكن معي أقل من هذا، والحقيقة أنني لم أندم على ذلك، فالمؤسسة تحقق أرباحاً كبيرة في المدة الأخيرة.

– أوه!

وعبث بومي بقطعة من الخبز ثم قال:

– أطلعت على الأرقام اليوم وهي أرقام مدهشة. ويبدو أن الحكومة تغرقنا بالمال، ولاحظت أن بينج يطالب الحكومة دائماً بأسعار هي ضعف ما ينبغي أن يطالب به في الحقيقة، ولا مفر من الاعتراف بأنها فضيحة من الطراز الأول! ولكن يخفف من وقع هذا على نفسي أن الحكومة تسترد الجانب الأكبر من الإيرادات في صورة ضرائب!

واستمر الحديث بينهما على هذا النحو إلى أن تناولا القهوة، ثم ذهبا إلى قاعة الإستقبال، وطالب بصحف المساء، وكان أهم الأنباء في تلك الليلة النجاح الكبير الذي أحرزه الحلفاء على خط هندنبرج، فهل ترى بدأت موجة النصر تنحسر عن الألمان، وتتحول إلى جانب الحلفاء؟

وأدار بومي جهاز الحاكي فسمعا مقطوعات من شوبان، ثم ذهبا إلى فراشيهما، وكان آخر ما قاله لها عند باب حجرته:

– على فكرة! لقد كتبت إلى ذلك الفتى كارول!

– ومتي طلبت منه أن يحضر؟

– اقترحت عليه أن يحضر للعشاء ذات ليلة وأن يبقى لدينا حتى الصباح، ولكنهم في المعسكر قد لا يسمحون له بذلك، وعلى أي حال سنتلقى منه رداً.

ومرت أربعة أيام من غير أن يأتيهم رد، وعاد من باريس في خلالها بينج، أو فلندعوه باسمه الكامل: الكولونيل أوين بينجلي؛ وجاء معه من باريس بطلبات عاجلة من سيارات لوفل فرينشام. وحضرت ليلي من بورتسموث، وحددت مأدبة العشاء في ليلة ٩ سبتمبر الموافق يوم الاثنين، وقبلت مسز كلهون والكابتن لورانس الدعوة.

وبعد ظهر يوم الاثنين، قرب وقت الشاي جاءت هذه البرقية "حصلت على أجازة وقادم الليلة. شكراً – كارول".

وكان بومي في الحديقة يتفقد أزهاره المحبوبة عندما جاءته مارجريت بالبرقية. وقالت له:

– هذا موقف محرج للغاية فأجابها بومي بمجرد قراءة البرقية:

– رديه إلى معسكره بمجرد وصوله، لا أظن أن هناك مجالاً لتصرفٍ آخر، أليس كذلك؟

– لقد ظن أن الدعوة مفتوحة، وأنه يستطيع أن يختار أي ليلة يشاء، وهذا مؤسف.. وطبعاً سيفسد نظام المائدة إذا حاولنا أن نجهز له مكاناً عليها.

– المائدة؟ هناك يا عزيزتي مارجريت ما هو أهم من ذلك، لا يسعنا بأي حال أن نقبل وجوده. فنحن أولاً ليست لدينا أية فكرة عن شخصيته، وبفرض أنه ألطف إنسان في العالم، فهذا لن يمنع بينج من كراهيته لأنه أمريكي.. أبرقي إليه أننا لن نكون في البيت الليلة، أو أي عذر من هذا القبيل يصلح لمنعه من الحضور وأرسلت مارجريت برقية بهذا المعنى، وعاد الهدوء إلى الأسرة وذهبت مارجريت إلى حجرتها في وقت مبكر لترتدي ثياب السهرة، وكان عليها أن تقوم برعاية أمها، والإشراف على تبديل ثيابها للنزول إلى قاعة المائدة، لأن الأم مصرة على ذلك كي تقابل بينج، وظلت تنتظر هذه الفرصة منذ أيام.

وابتسمت مارجريت وهي تفكر وحدها فيما سيترتب على هذا الإصرار، إذ لابد من إشعال النار في مدفأة قاعة العشاء رغم دفء الجو في ذلك المساء، ولابد أيضاً من دفع الكرسي المتحرك إلى موضع قريب

من النار على المائدة، كي يتسنى لها الاستمتاع بالدفء، والاستماع إلى الحديث، والمشاركة فيه بين الفينة والفينة.

يا لها من امرأة مدهشة! ففيما عدا الروماتيزم الذي لم يزدد سوءاً منذ سنوات، فهي تتمتع بصحة جيدة للغاية، وكان فرجيسون يقول دائماً إنها لا تشغل نفسها بشيء، ولذا فمن المحتمل أن تعيش إلى أن تبلغ المائة!

وساعدتها مارجريت في ارتداء ثيابها، وروت لها أثناء ذلك مسألة كارول، ثم تركتها وعادت إلى حجرتها لتتم زينتها، وقد سمعت أصواتاً في البهو، استنتجت منها أن بعض الضيوف قد حضروا مبكرين، ثم دخلت عليها الخادمة وقالت لها لقد أرسلني كوكسون يا سيدتي لأخبرك أن هناك جندي حضر المقابلة الرائد.

ولم يكن في ذلك ما يدعو للدهشة، فما أكثر حضور الجنود في مهام المقابلة الرائد، ولذا استغربت حضور الخادمة بهذا النبأ فقالت الخادمة:

– والرائد في الحديقة يا سيدتي، ولذا قال كوكسون إنك ربما رغبت في مقابلته بنفسك لتسأليه عما يريد.

– وماذا عساه يريد؟ ألم يسأله كوكسون؟

– أظنه سأله يا سيدتي، ولكن الجندي ينتظر في البهو.

– سأنزل وأراه بمجرد انتهائي من زينتي.

وأسرعت بإتمام زينتها ثم نزلت فوجدت جندياً طويلاً جداً يتقدم لملاقاتها، ويقول لها بهدوء:

– اسمي كارول.

فهتفت مارجريت وهي تحملق فيه بغباء:

– أوه!

وكان الموقف في غاية الحرج حقاً، فأخوها بومي بعيد عن الدار وسط الحدائق الواسعة، ومن المستحيل عليها أن تتبادل معه المشورة، وبينج وليلى ومسز كلهون قد يصلون في أية لحظة، والمائدة معدة وجميع الأسماء وقوائم العشاء مكتوبة وموضوعة على المائدة في أماكنها، ولاحظت أنه يحمل حقيبة صغيرة في يده اليسرى، أما يده اليمنى فممدودة نحوها، فتناولتها بطريقة آلية، فضغط عليها ضغطة قوية نبهتها من ذهولها، فقالت له وهي تدعو الله أن يتأخر حضور بينج بضع دقائق:

– تفضل بالدخول إلى قاعة الاستقبال.

فوضع حقيبته وقبعته فوق مائدة البهو وتبعها

– كان كرماً عظيماً من مستر فرينشام أن يدعوني، لأني كنت أشعر بشيء من الوحشة في إنجلترا، ومن الجميل أن يجد الإنسان هنا صديقاً، أنت فيما أظن مسز فرينشام؟

– كلا كلا، أنا أخته، أخت الرائد فرينشام.

– الرائد؟ لم أعلم أنه في الجيش البريطاني، في أية فرقة هو؟

ولم تكن تعلم بالضبط، فلديها فكرة غامضة بأن بومي لا ينتمي إلى أية فرقة، فقالت:

– أنه ليس ضابطاً في الجيش العامل، فهو حائز على الرتبة العسكرية، ولكن مهمته التفتيش في أنحاء الريف على آلات الطائرات.

– يا له من عمل مجيد! وأنتم طبعاً أصحاب سيارات لوفل فرينشام؟

– نعم.

– إنها سيارات رائعة، وهي ذات سمعة عالية حتى في أمريكا.

وكلمة "حتى في أمريكا" هذه من طراز الكلمات التي تثير ثائرة بينج، وألقت على وجهه نظرة فوجدته شاباً وسيماً له عينين زرقاوين بلون الفولاذ، ملامحه دقيقة، ويبدو عليه أنه من أسرة كريمة وأنه تلقى تعليماً حسناً؛ وضغطت على زر الجرس وقالت له بهدوء:

– لعلك تحب أن ترى حجرتك؟ العشاء سيكون بعد نصف ساعة ودخل الساقي كوكسون فقالت له:

– خذ هذا السيد إلى الحجرة الصغيرة في البرج.

وبعد خروجه مع الساقي أسرعت مارجريت إلى المطابخ وتوسلت إلى الطاهية أن تعيد توزيع الأصناف كي تكفي الضيف الطارئ. ثم خفت إلى قاعة العشاء، ودبرت مكاناً سابعاً على المائدة بمساعدة الخادمة، وكانت

تعلم أن بومي سيضيق بهذا لأنه يكره جميع التعديلات المفاجئة ولكن لابد مما ليس منه بد.

ورأت بومي قادماً مع الكابتن لورانس، فأسرعت إليه وأخبرته بما حدث، فاستاء بومي ولكنها ضحكت وهونت عليه الأمر، وأقبلت ليلى مع بينج، وكان بينج فخماً في كسوة الكولونيل.

يختال زهواً، أما ليلى فكانت تحمل آثار وضع آخر أولادها، وترتدي قرطا، من الزمرد غالي الثمن أحضره لها بينج من باريس، وانتهزت مارجريت الفرصة فشرحت لهما موضوع حضور كارول المفاجئ، فقال بينج:

– سيسرنا أن نقابل أي صديق من أصدقاء بومي، ماذا هو؟ رائد؟ ملازم؟ أم ماذا؟

ولم تكن قد فكرت في الموضوع من هذه الزاوية من قبل فقالت:

– أظنه جندياً عادياً، نفر فيما أعتقد، إن كان في جيش هؤلاء الأمريكان أنفار!

فضحك بينج ساخراً، وفي هذه اللحظة دخل كارول، وكانت قد أعدت له مكاناً بينها وبين ليلى، وفي الجهة الأخرى يجلس بومي بين كابتن لورانس ومسز كلهون. وسيطر بينج على الحديث كعادته دائماً، فهو

متحدث بارع له دراية بأشياء كثيرة، وله معرفة بأشخاص كثيرين، ولذا لا تخلو جعبته من حكايات طريفة عن الناس.

ولكن مارجريت كانت لا تحب منه هذه السيطرة على المجلس، وتتمنى لو أنه ترك لسواه فرصة الكلام، إلا أنه في اعتقادها كان زوجا موافقاً لأختها ليلى التي بدت مزهوة ببريق قرطها الجديد الثمين.

وتحدث بينج عن الدسائس داخل الوزارة، وعن مونمارتر في زمن الحرب، وعن الجنرالات الفرنسيين وحكاياتهم مع زوجاتهم وعشيقاتهم، وعن بوانكاريه وكليمنصو وغيرهما من المشاهير، الذين قابلهم أثناء زيارته الأخيرة لباريس، وروى عدة نكات لها أكثر من مغزى، فضحك منها بومي كثيراً ولكن مسز كلهون تصنعت عدم فهم إحداها، فكان ذلك مدعاة لإمعان الرجال الثلاثة في الضحك:

أما الرجل الرابع فلم يكن في نظر مارجريت سوى غلام، وهي تحب الغلمان، فسألته بهدوء وبصوت خافت أثناء انشغال الآخرين في الضحك:

– كم مضى عليك من الوقت في إنجلترا؟

– نحو ستة أسابيع.

– وكم من الوقت تتوقع أن تبقى هنا؟

– نحن في انتظار الأوامر للسفر في أية لحظة الآن بعد أن انتهينا من تدريبنا.

– إن الأنباء الأخيرة الواردة من الميدان أنباء مبشرة.

– جداً.

– وهل أنت متشوق للذهاب إلى الميدان؟

– جداً.

– ولكن ألا تشعر بالأسى لبعدك عن أهلك كل هذه المسافة؟

– هذا شيء بغيض طبعاً، والواقع أنني هربت من البيت وتطوعت بدون علمهم.

– هذا عمل فيه قسوة.

– كان هذا أسهل على نفسي من مواجهة المناقشة والمعارضة، ولك أن تعتبري تصرفي منطوياً على الأنانية.

– كلا كلا.. إني أتصور شعورك، أتعلم أنني أشعر دائماً بالإعجاب لأن الأمريكان انضموا إلينا في القتال؟ إنهم يعيشون بعيداً عنا جداً وكان من السهل عليهم أن يعتقدوا بأن المسألة لا تعنيهم.

فقال لها باسماً:

– أنت أول شخص إنجليزي أسمعه يقول هذا، أما كثرتهم فيتذمرون لأننا لم ندخل معكم الحرب منذ أغسطس ١٩١٤.

وكان بينج يصغي للجزء الأخير من الحديث فتدخل قائلاً:

– إن الأمريكان بارعون، فقد دخلوا الحرب في النهاية ليكونوا في الجانب الرابح، فلديهم حاسة اقتصادية مرهفة، وأظنهم متفائلين جدًا بخصوص الحرب في نيويورك؟

– لا أدري، فلم أذهب إلى نيويورك مطلقاً.

– حقا؟

– إني أعيش في بلد يبعد ثلاثة آلاف ميل عن نيويورك، فحين تتوقع مني أن أكون في نيويورك يشبه أن أتوقع منك أن تكون في جبال الأورال.

وكان رداً بارعاً كما قال لها بومي فيما بعد، وبدأت مارجريت تشعر بالاطمئنان إلى سلامة روح السهرة، وساعد على ذلك جودة الشمبانيا، والنكات المكشوفة نوعاً ما التي أطلقها بينج، فساد المرح جميع الموجودين، وفي قاعة الاستقبال استمع الجميع إلى قليل من الموسيقى، ثم حيتهم مسز فرينشام العجوز واحداً واحداً ثم دفع الساقي مقعدها نحو حجرة نومها. وبعد قليل استأذن الضيوف في الانصراف وبدأ السائقون يجهزون السيارات للرحيل.

وكان الليل صافياً والهلال ظاهراً في الأفق الشرقي، وشعرت مارجريت بالراحة والإنشراح لنجاح المأدبة، وللانتهاء من شواغلها، وانصرف بومي إلى الحديقة الشتوية ليبحث مع البستاني أعمال الغد، وجلست مارجريت مع كارول في حجرة الاستقبال وحدهما وقالت له:

– أرجو ألا تكون شعرت باستياء للهجة بينج، فهو يكره الأمريكان.

– لا بأس، فمثل هذه الأمور لا تؤلمني.

ووجدت أن الفرصة مناسبة لتفسير البرقية التي سيجدها ولا شك في المعسكر عند عودته، فقالت له:

– سأكون صريحة معك، الحقيقة أننا لم نكن راغبين في استقبالك الليلة، وتوقعنا ألا يكون هناك انسجام بينك وبين بينج، فأرسلنا إليك برقية نتعلل بعذر من الأعذار لمنعك من الحضور، ولكنك حضرت ومرت الليلة بخير.

– ولكني آسف جداً، فلابد أن البرقية وصلت إلى المعسكر بعد انصرافي، كان ينبغي أن تخبريني لحظة وصولي.

– لا تفكر في هذا الأمر، فقد سرني حضورك.

– حقاً؟ أتعنين هذا حقاً؟

– ولم لا؟ يجب أن تعود للزيارة عندما لا يكون بينج هنا.

فابتسم وقال:

– أظنك تحسبينني أشعر بالخشية منه. الواقع إني أستظرفه.

– حقاً؟ بعض الناس لا يستظرفونه حتى بعد أن تتوثق معرفتهم به، إنه مهذب جداً، ولكن عيبه أنه يحب السيطرة.

– وأنت؟ ألا تحبين أن يسيطر عليك أحد؟

– لقد كنت دائماً أرفض كل سيطرة على، ولهذا أشعر بتوتر في أعصابي كلما كان بينج هنا!

وفطنت إلى إنها تكلمه كما لو كانت تعرفه منذ سنوات، فجعلها ذلك تتوقف فجأة عن الكلام. وطال الصمت إلى أن قال لها وهو يتجه بنظره ناحية المعزف الكبير:

– أتعزفين؟

– قليلاً ما أعزف، وهل تعزف أنت؟

– قليلاً جداً أيضاً، ولكني لم ألمس معزفاً منذ شهور.

– إذن فلا بد أنك تتحرق شوقاً إلى لمس هذا المعزف.

– هذا هو الواقع، فهل تسمحين لي؟

– طبعاً.

فنهض من جوارها وجلس إلى العزف، وسكت برهة كأنه عاجز عن التفكير في المقطوعة التي يجب أن يؤديها؛ ثم شرع يعزف مقطوعة من شوبان من مقام س الصغير؛ ولكنه بعد قليل بدأ يتردد في العزف ويتعثر، فقال:

– آسف، هذه المقطوعة أصبحت عسيرة الأداء علي الآن، لقد تيبست أصابعي، سأحاول شيئاً أسهل منها.

ثم عزف مقطوعة ضوء القمر من تأليف ديبوس، فكان بارعاً رشيقاً في لمساته، وبعد الإنتهاء من النغمات الأخيرة قال لها:

– إن المعزف بديع الأداء.

فأجابته بهدوء قائلة:

– وكذلك عزفك.

فاحمر وجهه خجلاً وقال متلعثماً:

– بل المعزف هو الرائع حقاً.. صوته غني.. وحنون.

– هذا لأنه عتيق، لقد اشتريناه من آل شتاينواي عام اليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا، وكانوا قد اشتروه مستعملاً أيضاً.

– يا له من معزف عتيق رائع، أن عام اليوبيل هو عام مولدي.

– وأنا كنت يومئذ في العشرين. وأتذكر أني ذهبت مع أبي لمشاهدة المهرجان الكبير.

فدار فوق المقعد المستدير وحملق في وجهها قائلاً:

– إذن أنت في الحادية والأربعين الآن! ولم أكن أقدر لك أكثر من الثلاثين عاماً واحداً!

– هذه تحية لطيفة من جانبك!

– لم أقصد المجاملة، هي الحقيقة!

فضحكت، وفي هذه اللحظة عاد بومي.. وذهب الثلاثة إلى قاعة الطعام حيث شربوا كأساً قبل الذهاب إلى الفراش؛ وقال بومي أنه يريد أن يطوف مع كارول الحدائق في الصباح. فأدى ذلك إلى مناقشة برنامج كارول. لكنه قال بأنه يجب أن يعود إلى المعسكر ظهراً، ولذا يجب أن يستقل قطار التاسعة والثلث، فقال بومي:

– هذا معناه أنك لن ترى الحدائق، وهذا القطار بطيء ومزعج، لو أنه أمكنني الاستغناء عن سائق لكلفته أن يوصلك إلى المعسكر في إحدى سياراتي.

فقالت مارجريت على الفور:

– سأوصله في سيارتي أنا يا بومي بعد أن يشاهد الحدائق.

– هذا إزعاج شديد لك بسببي!

– لا عليك؛ إني اذهب كثيراً إلى أكسفورد لشراء ما يلزمني، وهناك أمور كثيرة سيمكنني قضاؤها هناك غداً، فلن تذهب الرحلة معك سدى.

الفصل التاسع

سؤال

نعم كان بومي مبتهجاً بمعرفته، فأهله يملكون حديقة كبيرة كما قال لمارجريت في صباح اليوم التالي وهي جالسة في سيارتها ذات المقعدين، تنتظر قدوم كارول بحقيبته، واستطرد بومي يقول:

– وليست حديقتهم طبعاً كهذه الحديقة، ولكنها مع هذا حديقة لطيفة، تصوري أنه قال لي أنهم يستنبتون الأزهار التي نزرعها هنا في الحديقة الشتوية تحت الزجاج، يزرعونها هناك هكذا في الهواء الطلق بغير تدفئة خاصة، وهو حقيقة شاب لطيف المعشر بصورة خارقة للعادة، وأعتقد أنه عرف كيف يصمد لبينج في الليلة الماضية، وبينج كما تعلمين يحتاج الصمود له إلى صفات خاصة، ولم يتسع وقتي كي أريه جميع أرجاء الحدائق للأسف الشديد، ولذا يجب أن يأتي مرة ثانية ليشاهد البقية.

– لعلنا إذن سندعوه للحضور في عطلة الأسبوع القادمة؟

– هذه فكرة طيبة، نعم، وجهي إليه الدعوة على كل حال، والآن يجب أن أسرع بالذهاب، وقد ودعته قبل أن يصعد لإحضار الحقيبة، فلابد لي من البت في موضوع كارديف اللعين.

وانصرف على عجل فشيعته مارجريت بابتسامة.

وكانت الساعة العاشرة صباحاً، والشمس ساطعة، ولا شك أنه سيكون من السهل الوصول بالسيارة إلى أكسفورد قبل الظهر، ولما ظهر كارول وراء السيارة ابتهج كثيراً وقال:

– كنت أخشى أن تكون من نوع الليموزين الضخم.

فضحكت مارجريت وقالت له:

– أنا أكره السيارات المقفلة.

فقفز إلى جوارها وانطلقت به، وكانت السيارة مريحة، ومن أكثر منتجات لوفل فرينشام شعبية. وكانت مارجريت تقودها في يسر وثقة، فشعر بالسعادة منذ أول لحظة، وعندما وصلت السيارة إلى الطريق العام وغادرت الأسوار، قال لها:

– بهذه المناسبة، لقد أحببت شقيقك كثيراً.

– حقاً؟ لشد ما يسرني هذا!

– والحدائق.. ما أروعها!

– الناس كلهم يقولون هذا، مع أن الحدائق قد أُهمل شأنها في المدة الأخيرة إهمالاً كبيراً، لأنه لم يعد في استطاعتنا بسبب التجنيد أن نستخدم أكثر من بستاني واحد متفرغ، ولكن بومي يعيش من أجل هذه الحدائق، حتى أنني أقول دائماً أنه يفضل في حالة قيام الألمان بغارة جوية على هذا المكان أن يصبوا قنابلهم على البيت لا على الحديقة والأشجار!

وانساب الحديث بينهما هينا، وكارول يبدي افتتاناً بالمناظر الجميلة على طول الطريق، ويقارن بين هذا الجمال في المساحات الصغيرة وبين الآفاق الشاسعة المترامية في أمريكا.

– ولكنك ستحبين أمريكا، ولا أقصد طبعاً نيويورك والمدن الكبيرة، بل تلك الأجزاء الهادئة التي لا يزورها السياح عادة، مثل أوريجون وتكساس ولويزيانا.

ثم أخبرها مزيداً عن نفسه، فهو ولد وحيد، وأهله ليسوا من كبار الأثرياء، لأن والده خسر في المضاربات في المدة الأخيرة، ومع هذا استطاع أن يدبر أمر إرساله إلى جامعة ولاية كاليفورنيا في بيركلي، وكان في السنة الثالثة موفقاً في دراسته عندما دخلت أمريكا الحرب فغير ذلك كل شيء في حياته، فأغراه حب المغامرة بالتطوع.

ووجهت إليه مارجريت الدعوة للحضور في نهاية الأسبوع القادم باسمها واسم أخيها، فأظهر سروراً عظيماً وهتف:

– سيسعدني جداً أن أحضر إن استطعت، أظنني أستطيع، أوه! لابد لي من الحضور بأي شكل!

ووصلا إلى مدخل المعسكر قبل الظهر بعشر دقائق، فشد على يدها باسماً، وخيل إليها أن وجه هذا الأمريكي الشاب يمثل كل جديد ناضر في الحياة، وأخذت تبتسم وتلوح له بيديها قبل أن تنطلق بالسيارة، ويغيب عن ناظريها.

وانطوى ذلك الأسبوع على أمور مثيرة، لا بالنسبة للقارة الأوروبية فحسب، بل وأيضاً بالنسبة لهاي ستاو؛ ففي يوم الأربعاء وقع حادث طفيف لبومي إذ تعثر بنتوء في الأرض فسقط وصدم ذراعه ولم يذهب إلى الفراش كما نصحته أمه، بل توجه إلى المستشفى المحلي في المساء، واستشار طبيباً من أصدقائه فقيل له أنه سيحتاج إلى علاج بالتدليك مدة من الزمن.

وفي وقت متأخر من مساء الجمعة بعد موعد العشاء وصل كارول، ولم يكن أرسل في خلال الأسبوع سطراً واحداً فلم تدر مارجريت وبومي في أي وقت سيكون حضوره.

وكان الاثنان في قاعة الاستقبال وبومي يبحث عن أسطوانة من أسطوانات الحاكي يريد أن يسمعها، أما مارجريت فكانت تمر بأصابعها في كسل فوق المعزف وإذا بالباب يفتح، وإذا كارول يندفع نحوهما متخطياً الساقي كوكسون بشبابه وحيويته الفياضة، وتحت ذراعه صحف المساء:

– الأنباء الليلة هائلة، فقد أخذ رجالنا ألوفاً من الأسرى، واستولوا على سان ميهيل بأسرها!

وشد على يد مارجريت شداً قوياً نقل إليها تياراً من حماسته، كأنما أزيح الستار فأبصرت أشياء لم ترها عينها من قبل، ثم فطن إلى أن ذراع بومي معلقة في ضمادة، فأبدى قلقه، ولكن بومي طمأنه إلى أن ذلك الرض لن يحول دون جولتهما غداً صباحاً في أرجاء الحدائق، فقال كارول:

– هذا جميل لأنه قد لا تسنح لي فرصة أخرى لمشاهدتها، إذ أننا نتوقع صدور الأوامر إلينا بالذهاب إلى الميدان في أية لحظة فنحن الآن لا تنصنع شيئاً في المعسكرات سوى انتظار الأوامر، ولذا سمحوا لي بهذه الأجازة بسهولة.

ودعاه بومي إلى قاعة المائدة ليتناول كأساً من الشراب معهما، وبعد تناول تلك الكأس، ذهب بومي كعادته كل ليلة للتفتيش الأخير على الحديقة الشتوية، وبقيت مارجريت مع كارول وحدهما.

فقالت له:

– هذا غريب، إنني أشعر حقيقة أني أعرفك منذ سنوات.

– حقاً؟ وهذا بالضبط ما أشعر به نحوك ونحو بومي وهذا البيت وكل ما هو إنجليزي، وبهذه المناسبة أتظنينه يستاء إذا ناديته باسم بومي؟

– أنا واثقة أنه لن يستاء من ذلك، وتستطيع أيضاً أن تناديني مارجريت، وسأناديك بأي اسم تشاء.

– اسمي الأول أنتوني، ولكني لا أحبه كثيراً، وأفضل أن أنادي باسم كارول بالطريقة التي تنطقينها أنت!

فابتسمت وقالت:

– وهو كذلك، ليكن كارول إذن.

– فلنسر ونوثق المعرفة بيننا، فإني أشعر أن العالم يدور من حولنا بسرعة فائقة، وأنه ينبغي أن أجرى بأقصى سرعتي لألحقها.

– إننا على كل حال سنستفيد فائدة كاملة من عطلتك، وإذا كان بومي سيستأثر بك في الصباح، ففي استطاعتنا على كل حال أن نذهب بعد الظهر – إن شئت– بنزهة في السيارة إلى مكان ما.

– لشد ما أحب هذا!

– أو نتسلق تل ستاو.

– وأني لأحب هذا أيضاً!

– وإذا تغدينا في ساعة مبكرة فقد يتسع الوقت الأمرين معاً.

– إذن يجب أن يتسع الوقت للأمرين معاً!

– وفي المساء أريدك أن تعزف، فسوف يأتي أحد لتناول العشاء، وها نحن أولاء قد شغلنا لك وقتك كله.

– إني سعيد بهذا جداً، بل إني مستعد أن أعزف لك الآن يا مارجريت إن أحببت ذلك.

– نعم، أرجوك.

وذهبت معه إلى قاعة الإستقبال، حيث شرع على الفور في العزف فعزف على التوالي مقطوعات كثيرة من شوبان ورافل وشومان وبتهوفن، وبعد أن انتهى من عزف آخر مقطوعة قالت له:

– الحقيقة أنه يجب أن تحترف العزف!

– كنت أنوي أن أحترفه لولا قيام الحرب.

وفي هذه اللحظة عاد بومي فاقترح عليهما تناول كأس أخرى، وحان منتصف الليل قبل أن يذهب ثلاثتهم إلى مخادعهم؛ وكان آخر ما قاله بومي لأخته:

– إنها لجريمة أن يرسلوا فتى كهذا الفتى إلى خط النار وهو فنان موهوب، وأن يتركوا ألوفاً من الخاملين والعاطلين من المواهب في وظائف شبه مدنية لا خطر فيها على الإطلاق، وأنها جريمة لا تغتفر!

واستأثر بومي بكارول في الصباح، ولكن مارجريت كانت قد أعدت العدة لغداء مبكر، وبعد الغداء مباشرة، في الساعة الثانية بعد الظهر، كانت سيارتها الصغيرة تجوس بها بين التلال، وكان كارول لا يكف عن إبداء إعجابه بالمناظر المختلفة، فتشعر لرنة ذلك الإعجاب بصدى في نفسها كأن إعجابه موجه إليها شخصيا، وأظهر دهشته لإتقانها قيادة السيارة هذا الإتقان الفائق، ثم استطرد قائلاً:

– ولكن لا عجب في هذا لأن أسرتك تعتبر من أوائل القائمين بصناعة السيارات في العالم، أليس كذلك؟

– أنا لا أستطيع أن أدعي هذا، وكل ما هناك أن أبي كان دائماً على استعداد لاحتضان المشروعات الجديدة، فلما مات فجأة وظفت أمي مالها في تلك الصناعة، وبعد ذلك انضم إلينا بينج، ولكننا لم نخترع شيئاً بأنفسنا.

– أعتقد أن معكم في المشروع شخصاً اسمه لوفل أيضاً؟

– نعم، وهذا هو المخترع.

– إذن فكل منكما كان سبباً في ثراء الآخر؟

– لا أعتقد أن هذا هو الوضع الصحيح للمسألة، فالواقع أننا اشترينا منه اختراعه لقاء مبلغ صغير، ثم ظللنا سنوات كثيرة نخسر في إنتاج السيارة الجديدة، ولم يبدأ الكسب إلا قبل بداية الحرب مباشرة، وعندئذ بدأنا نفكر في ترتيب معاش مجز للمخترع وإذا به يموت فجأة.

– هل كان مسناً؟

– بل كان شاباً، أو على الأقل هكذا يبدو لي أنا، لأنه مات في الثانية والأربعين.

– ولكنكم أشركتموه في اسم السيارة على كل حال!

– نعم لقد سعدت، بل سعدنا كلنا بذلك، وأظن أن هذا الاسم أبهجه أكثر من المال، فقد كانت حياته مأساة.

– كنت تعرفينه جيداً بالطبع؟

– نعم.

وتناولا الشاي في شلتنهام، ثم عادا عن طريق تل ستاو. وهناك صعدا إلى القمة معاً على الأقدام، وأخبرته بتاريخ البرج العجيب، وفي تلك الليلة تناولا عشاء متأخراً، وظل بومي يتحدث بلا انقطاع عن الحدائق، وأدهش مارجريت أن ترى أمها تنزل إلى قاعة الطعام قرب نهايته، وبدا عليها أنها تستظرف كارول بصورة واضحة، وكان الفتى شديد التهذب والاهتمام بها، فتجاذب الإثنان حديثاً طويلاً متشعباً، ولما ذكر موضعاً معيناً في أمريكا ابتسمت السيدة العجوز وقالت:

– نعم لقد ذهب مستر فرينشام والد مارجريت وبومي إلى هناك مرة، فقد كان من كبار الرحالة، ولا أظن أن على وجه الأرض قطرا لم يزره مستر فرينشام، فقد شملت أسفاره جنوب أفريقيا وأمريكا والهند وأستراليا وزيلندة الجديدة وسيبيريا .

وابتسمت مارجريت لحماسة أمها كلما ذكرت زوجها في الأيام الأخيرة، ويبدو أنها نسيت كل شيء عنه ما عدا الأساطير التي نسجت حول شخصيته وأبهته، فصار في نظرها تلك الشخصية العجيبة التي تعرف كل شيء وكل إنسان؛ إنه بطلها الأسطوري.

وابتهجت مارجريت لأن أمها أحبت كارول، ولم يعد لديها شك في ذلك عندما سمعتها تطلب منه أن يعزف لها شيئاً بعد العشاء، وأمرت أن يدفعوا مقعدها المتحرك إلى جوار المعزف، فعزف كارول لها مقطوعتين من الفالس الشوبان، فشكرته وصعدت إلى فراشها واستمر هو يعزف إلى أن وصلت صحف المساء، فأخذ يطالعها بشغف، لأنها كانت تتضمن مزيداً من التفاصيل عن الإنتصارات الأمريكية في سان ميهيل، ولما تركهما بومي لزيارة الحديقة الشتوية كعادته جلست بجواره على الأريكة؛ فابتسم وقلب صفحات الأطلس الذي بين يديه والذي كان يراجع فيها خريطة المعركة، وعلى خريطة تمثل الولايات المتحدة جعل يدلها على الطريق التي ستسلكها إلى كاليفورنيا حين تأتي لزيارته، والتقى رأساهما فوق الخريطة الكبيرة وعيناها تتابعان حركات أصابعه، إلى أن بدأت ألوانها وأسماء ولاياتها تتداخل وتهتز أمام عينيها، ولما وصلت سبابته إلى سان فرانسيسكو استولى عليها صمت، إلى أن رفعت إليه عينيها وقالت:

– إنك تفكر في شيء؟

– نعم، وكذلك أنت.

– لقد كنت أفكر يا كارول في هذه الحرب، ويدهشني أن رجالاً من كاليفورنيا وتكساس ولويزيانا يقطعون آلاف الأميال ليحاربوا في فرنسا، أن هذا يبدو نوعاً من المعجزة، والآن فيم كنت تفكر أنت؟

– لم أكن أفكر في شيء من هذا إطلاقاً.

– فيم إذن؟

– ألن أحنقك أن أكون صريحاً؟

– كلا بالطبع.

فأجابها بهدوء وهو يبتعد برأسه عن رأسها:

– كنت أتساءل لماذا لم تتزوجي قط؟

وشعرت بإعياء غريب يستولى عليها ويسري في أطرافها، حتى إنها اتكأت على وسائد الأريكة، وهمست بقولها:

– هذا سؤال من الصعب الإجابة عنه.

– إنه ليس سؤالاً، ولست أريد عنه جواباً، وإنما هو الموضوع الذي كنت أفكر فيه وأقلبه في رأسي.

وابتسمت للهجة الجد التي يتكلم بها، فقالت:

– ربما أخبرتك بهذا كله يوماً ما.

– ولكني لم أطالبك بالإجابة يا مارجريت.

– ولكن هب أني أحب أن أفضى بها إليك؟

وقطع عليهما الحديث دخول بومي.

وكان اليوم التالي رطباً بعض الشيء يكتنفه ضباب خفيف، ولكنها خرجت به في الصباح، فتنقلا بالسيارة مخترقين شلتنهام إلى

تويكسبيوري، وتناولا الغداء هناك بعد أن شاهدا معالم المدينة العتيقة ثم اتجها إلى بريدون، وبدا لهما تل بريدون وسط الضباب وكأنه جبل شاهق، ثم أغراهما المنظر بالصعود إلى القمة فتركا السيارة وبدءا في التسلق، وقالت له:

– هذه هي المرة الأولى التي أتسلق فيها هذا التل.

– هذا جميل، فكلما قلت لي هذه أول مرة أزور فيها هذا الموضع منذ كذا وكذا من السنين أشعر بالسخط لأنه يوحي بأنك عجوز.

– ولكني عجوز فعلاً!

– لست عجوزاً! إنك في مثل سني.. فيما يتعلق بكل أساسيات الحياة.

فابتسمت وقالت له:

– ولكني اعلم أني عجوز، حتى وإن كنت لا تعلم هذا، فعندما كنت في سنك كنت أستطيع أن أتسلق هذا الجبل من غير توقف، أما الآن فانظر كيف ألهث كأني آلة بخارية!

– لابد أنك كنت رائعة في تلك السن، ولكنك أشد روعة في الوقت الحاضر، وما أكثر الفتيات الرياضيات في سن العشرين، ولكني لم أقابل فتاة تضاهيك يا مارجريت.

– إنك تجاملني مجاملة مسرفة!

– بل إني أعنيها بحذافيرها يا مارجريت، فأنا بكل أمانة لا أستطيع أن أتخيل فتاة في العشرين تضارعك في سحرك وفتنتك.

– هذا غير معقول، فأنا أستطيع أن أعطيك أسماء عشر فتيات على الأقل من بين صديقاتي، وأن أردت الدليل سأدعو بعضاً منهن للغداء غداً.

– أرجوك ألا تفعلي! لأني سأكرههن، فأنا في الواقع لا أحب الفتيات!

– حقاً؟

– أنا أفضل الرجال دائماً، ولا أشعر بالارتياح مع الفتيات لما فيهن من بلاهة وتفاهة أما أنت، فهادئة رزينة وتشعرينني بالطمأنينة الكاملة.

– هذا لأني أكبر سناً.

– كلا.. كلا، من فضلك، وحتى لو كان الأمر كذلك، فالسن إذن هو أحب شيء في الدنيا، وأظن هذا أيضاً هو رأي الأخرين.

– الآخرين؟ مثل من؟

– بينج مثلاً، فقد فطنت لنظراته إليك في الأسبوع الماضي، وكان واضحاً جداً إعجابه بك.

– هذا هراء يا كارول، فبينج ينظر هكذا إلى كل امرأة متى شرب كأساً من الشمبانيا أو كأسين.

– ليس إلى كل امرأة في الأربعين على كل حال!

وقرب القمة توقفا عن الصعود ليستعيدا أنفاسهما، وقد انقشع الضباب من فوقهما وتجمع من تحتهما، فكان المنظر بديعاً جداً، ونظرت مارجريت نحو التلال الأخرى البعيدة التي برزت قممها فوق الضباب وقالت له:

– ألم تزل تتساءل لماذا لم أتزوج قط؟

– لا تقولي لأن بينج تزوج ليلي؟

فضحكت وقالت له:

– ولكن هذا هو السبب فعلاً، ومن العجيب إنك أدركت ذلك من تلقاء نفسك! أإن المسألة كلها تبدو لي بعيدة عن التصديق الآن، ولكن هذه هي الحقيقة على كل حال، فقد مضى على وقت كنت مستعدة فيه أن أرتمى على عنق بينج عند أول إشارة منه.

– هل كنت تحبينه؟

– كنت أظن أني أحبه، ولعلني كنت أحبة فعلاً عندئذ، ولكن هذا كان منذ زمن طويل، كنت يومئذ في الخامسة والعشرين، وكان بينج هو مدير المؤسسة، فكنا نراه كثيراً بطبيعة الحال، وإليه يرجع الفضل في توطيد دعائم الصنع، ولولا جهوده الإدارية والمالية الخارقة كنا كلنا اليوم فقراء،

ورغبت أمي في أن يتزوج إحدانا ولم يكن يعنيها من هي التي يتزوجها، فاختار ليلى لأنها كانت جميلة جداً.

– لابد أن وقع ذلك عليك كان قاسيا للغاية!

– هكذا كان شعوري عندئذ، ولكني سعيدة الآن لأني لم أصبح مسز بينج.

– إنه يبدو لي على ما يرام.

– إنه كذلك فعلاً، ولكنه يفرض دائماً إرادته عليك لا تدري كيف، وليلى لا تبالي بذلك، أما أنا فتكويني مختلف عن تكوينها.

وشرعا يهبطان التل، فقالت له:

– إنه لعجيب جداً أن أفضى إليك بأسراري على هذا النحو!

وامتلأت عيناها بالدموع وهي تضع يدها على ذراعه، وتقول:

– كل شيء فيك ناضر جديد، وأنا كل شيء في عتيق، وأظن أن هذا كان بداية المناقشة بيننا، وركبا السيارة عائدين عن طريق التلال، وكانت تتكلم طول الوقت تقريباً، وتشجعه على إلقاء الأسئلة، ثم قالت له قرب الدار:

– من العجيب حقاً أن أخبرك أنت بما كان في نفسي من تعلق ببينج فيما مضى، فما من أحد يعلم هذا ولا سيما بينج نفسه.

– ألم يحس بشيء؟ ألم يخمن؟

– إطلاقاً، وكان ذلك مصدر متعة لي.

– لا أظن هذا، فمن الفاجع جداً أن الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتك لم يفطن إلى تلك الحقيقة!

فضحكت عندئذ ضحكة عصبية وقالت:

– أراك تقفز إلى النتائج بصورة رومانسية يا كارول، فمن الذي قال لك أن بينج هو الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي؟

وأحست باضطرابه، فشعرت بصدى ذلك في نفسها مزيجاً من اللذة والخوف، وطاب لها أن تكاشفه بتلك الأمور المطوية في سريرتها، فقالت:

– الواقع يا كارول أنه سبق لي حب مثير للغاية وأنا في العشرين من عمري مع الرجل الذي اخترع السيارة، فيليب لوفل!

– رباه!

– لست أدري ما الذي جعلك تصبح هكذا، فليس عجيباً قطعاً أن تفتتن فتاة في العشرين من عمرها بمخترع شاب جميل الصورة، وقد جن كل منا بالآخر جنوناً حقيقياً زهاء شهر من الزمن، حتى لقد ظننت أن هذا الحب هو الحب الأكبر في حياتي، وقد تخليت عنه فيما أذكر لأني رأيته يعانق ليلى ويغازلها، نعم هذه هي الحقيقة وما أغباني في تلك الأيام.

– لا أصدق هذا!

– ولكنها الحقيقة. لقد كنت فتاة لا تطاق وأنا في تلك السن، ولا تصلح لرجل يريد أن يوطد مستقبله، كنت أريد أن أستأثر من وقته بأكثر مما يجب، وكنت أغار لأنه لا يهمل عمله لينصرف إلى حبي وصحبتي، وأعتقد أنه أحس بالراحة في أعماقه عندما تخليت عنه.

– ولكنك كنت تحبينه؟

– بصورة لا توصف!

– وماذا عنه هو؟ هل تزوج فتاة أخرى؟

– كلا، فهو ليس من الطراز الذي خلق ليتزوج، ولكن بصيرتي يومئذ لم تسعفني بهذا الاكتشاف. فعمله كان مقدماً لديه على كل شيء، ولم يكن اهتمامه بالنساء إلا شيئاً ثانوياً عندما يكون لديه متسع من الوقت.

– إن هذا يبدو فظيعاً!

– كلا! لقد كان لطيفاً جداً مع الفتيات اللواتي كن يغازلنه على شرطه، وكانت غلطتي أنني أحببته حباً حقيقياً، وفيما بعد، خمدت الجذوة صارت العلاقات بيننا ودية جداً، وكان من الفاجع حقًا أن يموت في اللحظة التي بدأ فيها نجاح عمله.

فجمع قبضتيه وحدق أمامه بأسى، وقال:

– هذا أمر فاجع، نعم له ولك أيضاً يا مارجريت!

– لقد افتقدته كثيراً بالطبع.

– ولكن في مجموع حياتك يا مارجريت بصرف النظر عن الفاجع فيها وغير الفاجع، وبصرف النظر عن هذا الحب الأول ثم حبك لبينج، ألم تشعري في غضونها بسعادة على الإطلاق؟

فأجابته وهي تضحك ضحكاً هادئاً عميقاً كأنها تتحداه:

– بل حفلت حياتي بأكداس فوق أكداس من السعادة، أؤكد لك هذا، أم تراني أبدو نموذجاً للتعاسة؟

وكان الغسق قد خيم على الطريق والمراعي، والقمر قد توسط السماء، والرياح قد أخذت تكتسح أمامها الضباب وتطرده من الوديان، فقال لها:

– كم أتمنى لو صعدنا تل ستار مرة أخرى!

– في استطاعتنا ذلك إن كنت تريد ذلك حقاً.

وتركا السيارة عند السفح وشرعا في الصعود، ورنت على البعد أجراس كنيسة، فلما ارتفعا عن سطح الأرض بدت لهما عن بعد أنوار هاي ستاو، ولما رفعا رأسيهما وجدا ضوء القمر ينعكس على البرج العتيق، وكأنه منارة مرفوعة في عرض أليم، وبعد أن وصلا إلى القمة شرعا في الهبوط من الناحية الأخرى، وقالت:

– إأن هذا الطريق سيفضي بنا إلى الدار مباشرة، ولا وجه للقلق على السيارة لأننا نستطيع أن نرسل أحد السائقين لإحضارها فيما بعد.

وكانت كل كلمة وكل همسة تتردد لها أصداء بغير نهاية في سكون الليل، فآثرا الصمت إلى أن دخلا في منطقة كثيرة الشجر فصاح فجأة:

– انظري، انظري هناك!

ورأت ضوء القمر يكشف عن جذع شجرة ميتة ملقى بحيث يسد طريقهما وكأنه شبح، ولكن المنظر لم يكن فيه ما يبعث الخوف لأن كل شيء في ضوء القمر وتحت تلك السماء الصافية كان هادئاً مأنوساً.

واقتربا من الشجرة، وعندئذ هتفت هي:

– عجباً! إنها الشجرة العتيقة التي حفرت أنا وبومي الحروف الأولى من اسمينا عليها ونحن طفلان؟ – ألم تكوني تدرين أنها في هذا الموضع؟

– إن بومي أحدث تغييرات كثيرة، وقطع كثيراً من الأشجار منذ سنوات.. فظننت هذه الشجرة بين الشجر الذي قطع وبيع.

ووقفا أمام الشجرة يفتشان عن مواقع تلك الحروف. فاكتشف كارول أولاً الحروف الأولى من اسمها ثم حرفي ف. ل؛ فقالت له:

– أتقول ف. ل؟ هذا فيليب لوفل، لقد نقش الحرفين بجوار حرفي اسمي ذات يوم عندما صعدنا إلى هنا.

– عندما كنت في العشرين؟

– نعم.

– ثم نسيت كل ما يتعلق بالموضوع؟

– كلا، ليس بالضبط، كل ما هناك إني بحاجة إلى ما يذكرني بهذا الماضي، والواقع أنني أتذكره الآن بكل وضوح، لقد حدث هذا ذات صباح يوم ماطر من أيام الصيف، وقد لذنا بهذه الأشجار المحتمي من المطر.

– وهل كان هذا عندما كنت تحبينه؟

– ربما، أو قبيل ذلك، فالإنسان لا يعرف دائماً متى يبدأ بالضبط في حب شخص ما..

– حقاً؟ أما أنا فأعرف.

– أنت؟

ونظرت إليه غير مصدقة، فأجابها:

– نعم، فقد عرفت أنني أحبك في الليلة الماضية عندما كنا ننظر معا في أطلس الخرائط الملونة.

ورأت نور القمر ينعكس على عينيه، فلما فكرت في جواب هبت الرياح الندية بين الشجر، وألقت تحت أقدامها بحفنة من الأوراق الجافة.. إن الأمر كله يبدو غير معقول وسخيفاً على نحو ما، ولكنه سخف ليس أشد من سخف القدر الذي أرسل إليها..

وها هي ذي تجد نفسها هادئة هدوءاً غريباً وهي تقول له بعد برهة صمت غير مشحون بالتوتر:

– يا كارول، إنك لا يمكن أن تعني ما تقول.

– بل أعنيه.

– أتمنى على كل حال ألا يكون ما قلته صحيحاً، أتمنى أن تكون مندفعاً مخدوعاً.

– بل إني واثق يا مارجريت من أنني أحبك أكثر مما أحببت أي إنسان أو أي شيء منذ ولدت!

– أوه! إني آسفة، آسفة جداً.

– لماذا؟

فهزت رأسها وقالت:

– كلا، كلا ..لا ينبغي أن نتكلم في هذا الموضوع وهيا بنا نسرع بالعودة إلى البيت!

واجتازا المراعي ذات اللون الفضي التي تغمرها أشعة القمر، ثم النهر، ثم حدائق الزهور التي بدت كأنها تستحم في الأشعة الفضية، ولم يتبادلا كلمة واحدة إلا عندما كانت تشير بين الحين والحين إلى هذه الشجرة أو تلك، أو إلى مجموعة من الزهور تعترض طريقهما، كأن تقول:

– هذا الكريزانتيم قد نجحت زراعته جداً هذه السنة.. وهذه البلوطات القرمزية التي تراها هناك تبدو متوهجة في ضوء القمر.. أنا لا أستطيع أن أتذكر اسم هذه الزهور الزرقاء الجميلة، ولكن بومي يستطيع أن يحدثك عنها طبعاً.

والحقيقة إنها كانت تبذل جهداً كجهد اليائس في تجاهل ما حدث بينهما من حديث ومن مكاشفة تجاهلاً تاماً؛ وأخيراً عندما اقتربا من الدار التفتت نحوه وقالت:

– لا تظن يا كارول أنني تأذيت من كلامك على الإطلاق.. لا تجعل هذا يتبادر إلى ذهنك.. ولكننا.. يجب أن نبقى أصدقاء على الدوام.. هل فهمت ما أعني؟

ورحل كارول تلك الليلة بعد العشاء مباشرة لأنه يجب أن يصل إلى المعسكر في منتصف الليل، وكان هناك قطار مناسب له يغادر شلتنهام في منتصف العاشرة، فتولى السائق روجرز توصيله إلى المحطة.

الفصل العاشر

معركة العواطف

مر أسبوع بأكمله قبل أن تصلها أنباء منه، وكان ذلك الأسبوع حافلاً بالأحداث العظيمة في العالم كله، ففيه انهارت بلغاريا وسقطت الناصرة في أيدي الجيوش البريطانية، وهزم ألنبي الأتراك هزيمة ساحقة.

وفي يوم الأحد وصلت برقية منه تقول إنه سيأتي في المساء، وكانت مارجريت تتحدث إلى أمها فقدمتها إليها بعد أن قرأتها بنفسها، فأظهرت السيدة العجوز اغتباطاً شديداً بنبأ حضور هذا الشاب اللطيف، وقالت أنها ستنزل في وقت العشاء لأنها تحب أن ترى هذا الشاب:

– إنه من الطراز الذي كان أبوك حريا أن يحبه كثيراً!

ولكن مارجريت عجبت في نفسها، لماذا يجشم نفسه السفر ثلاثين ميلاً لمجرد الزيارة والعودة في نفس اليوم، وحدثتها نفسها أنه تلقى الأمر بالرحيل إلى الميدان، وأن الدافع له إلى الحضور هو توديعها، واعترضت صدرها غصة من غصص الخوف، الخوف من رؤياه والخوف من توديعه، فإن ما كان بينهما من حديث ومكاشفة بين أشجار البلوط على تل ستار، قد جعل الأمور بينهما تبدو لها حرجة بعض الشيء.

وكان وصوله قبل الوقت الذي توقعته بمدة طويلة، وكان أطفال ليلى قد جاءوا بعد الظهر فظلوا يتوسلون إليها أن تسمح لهم بلعبة الاستخفاء في الحديقة، وبين صيحاتهم:

– من فضلك يا خالة مارجريت!

أقبل كارول يهبط السلم بسرعة، وعلى الفور سكت الصياح وجعل الأطفال جميعاً ينظرون إلى هذا الغريب ذي السحنة الصبيانية الذي يرتدي كسوة عسكرية غير مألوفة لهم، ويشد على يد الخالة مارجريت بحرارة ويقول لها وهو يلهث:

– أعلم إني جئت مبكراً جداً ولكني استعرت دراجة بخارية حتى لا أنتظر القطار، وأرجو ألا أكون قد سببت إزعاجاً!

– كلا بالطبع.

كانت تشعر بشيء من التوتر العصبي، وتتساءل هل يشعر هو أيضاً بذلك التغير الدقيق في العلاقات بينهما، واستطردت بعد برهة:

– إنك تبدو في أحسن صحة!

– وكذلك أنت، والأنباء التي في الصحف أليست رائعة؟

– إلى حد أن الإنسان لا يكاد يصدقه، وأخشى إنك ستصاب بشيء من خيبة الأمل لأن بومي ليس هنا، إذ اضطر للسفر مع بينج لتسوية بعض مسائل تتعلق بالأعمال.

– لا حيلة في هذا إذن، وأنت هنا على كل حال، أليس كذلك؟

– والآن اسمح لي أن أقدم لك أبناء أختي، بيتر وميكي وجون وبريان، بترتيب أعمارهم طبعاً، وهذا يا أطفال مستر كارول القادم من أمريكا.

وسرها أن تراهم على الفور يستجيبون لسحر شخصيته، فالتفوا حوله يفحصون كسوته العسكرية في لهفة ممزوجة بالخجل، إلى أن قال بيتر وهو أكثرهم جرأة وأكبرهم سناً:

– أبي يقول إنكم معشر الأمريكيين دخلتم الحرب متأخرين جداً .

وضحك كارول وأخذ يداعبهم ويناقشهم، فلم تمض دقائق إلا وهو في نظرهم بطل، وعندئذ سمحت لهم مارجريت أن يجروا ويلعبوا في الحدائق.

وقال كارول إذ ذاك:

– هؤلاء أطفال ليلى فيما أعتقد.

– نعم وهناك طفل رضيع أيضاً.

– مجموعة لطيفة، ما أسعد ليلى وبينج بهم.

– بينج يعبدهم وهم يعبدونه طبعاً، ومن المؤسف أنه يضطر للابتعاد عن البيت كثيراً من الأحيان.

وظلا يتجاذبان الحديث وهما يسيران في الحدائق ويلتقيان بين حين وآخر بأحد الأطفال مختفياً عن أعين أخوته، وبدأت تسترد سجيتها فأحست بسرور لصحبته يغمرها بالدفء، فقد خامرتها الشكوك أثناء الأسبوع، أما الآن فكأنما حدثت معجزة بدون هذه الشكوك، وأيقنت أنه من الممكن بعد الذي حدث بينهما أن يكونا صديقين، وقال كارول فجأة:

– أظنك تدركين لماذا جئت؟

– لكي تودعنا؟

– نعم، فسوف نرحل غداً.

– إلى فرنسا؟

– نعم.

– هل تظن أنك.. ستشترك.. في القتال.. سريعاً؟

– جائز جداً، فلا أحد يدري ماذا سيحدث؟

– أظنك مستشار الأعصاب؟

– بصورة هائلة.

– بومي سيحزن لأنه لم يرك قبل أن ترحل.

– ليس لهذا أهمية حقيقية، فسوف أراه مرات كثيرة في المستقبل على ما أتمنى.

– نعم، هذا طبيعي.

– وكذلك أنت؟

– طبعاً.. إلى متى ستبقى هذا المساء؟

– المفروض أنني سأعود قبل منتصف الليل، وطريق العودة لا يستغرق بالدراجة البخارية ساعة.

– عظيم، إذن تستطيع أن تبقى للعشاء وتعزف على البيانو بعد ذلك.

وكان رائعاً جداً أن يستطيع كلاهما الكلام بصورة عادية، كأنما حادثة أشجار البلوط لم تقع إطلاقاً، فها هما ذان كأي صديقين قديمين حميمين، وعندما أقبل الأطفال تحدوهم المربية للتحية قبل الرحيل، شعرت بفخر عظيم لما رأته يصافح بيتر وميكي وبريان ويقبل جون، وكاد فرحها به يعجزها عن الكلام.

وبعد ذلك دخلا إلى البيت لتناول الشاي، وكانت النار قد أشعلت في مدفأة حجرة الطعام، فجلسا في مقعدين وثيرين على جانبي المدفأ، واستمرا في حديث لا ينقطع، وقالت مارجريت:

– ستنزل أمي للعشاء كي تراك خصيصاً.

– حقاً؟ إني أقدر هذه المجاملة كل التقدير، فهي سيدة رائعة!

– لشد ما تحب أن تسمع هذا منك.

– حقاً؟ إذن سأقول لها ذلك متى سنحت لي فرصة، كم عمرها؟

– خمس وسبعون سنة.

– قال لي بومي أن بصرها وسمعها في أحسن حال.

– نعم، فهي تستطيع أن تقوم بكل شيء فيما عدا المشي، وقد عجزت عن المشي منذ أكثر من ثلاثين سنة.

– يا له من عمر مديد! وكيف حدث ذلك أصلاً؟ أهو نتيجة حادث؟

– نعم، نتيجة نوع من الحوادث.

– ومع هذا يعتقد الناظر إليها الآن إنها نعمت بأسعد حياة في العالم!

– لعلها تعتقد أنها سعدت في حياتها، وهذا ألطف شعور يحس به الإنسان حين يكون في الخامسة والسبعين، وتجمعت ظلمة الغسق حولهما وهو جالس أمامها مشبوك اليدين بين ركبتيه، ووهج النار ينعكس على وجهه فيبدو حديث السن، يتدفق عافية وقوة، وظلا يثرثران بلا هدف إلى أن صار من الضروري أن تتركه لتساعد أمها على ارتداء ثيابها تأهباً للعشاء.

وكان العشاء نفسه ناجحاً جداً، ونزلت السيدة العجوز في ثيابها الحريرية السوداء ذات الحفيف، ودفعوا مقعدها إلى مكان قريب من النار بجوار كارول، وظل الاثنان طوال المدة التي استغرقها الطعام يتحدثان في مودة ظاهرة تكاد تصل إلى تبادل الغزل، وطلبت مارجريت من الساقي كوكسون أن يأتي بزجاجة من أفخر أنواع الشمبانيا، وشرب كل واحد

منهم نحب الآخرين. وضحكوا جميعاً من قلوبهم، وبعد العشاء بدأت مسز فرينشام تهم للنوم، فدعي كوكسون كي يصعد بها إلى حجرتها، ووضع كارول يده في يدها المتغضنة وقال لها:

– أتعشم أن ألتقي بك ثانية يا سيدتي، فأنا ذاهب إلى فرنسا غداً.

– فرنسا؟ لقد ذهبت إلى فرنسا ذات مرة.. أوه! أتعني إنك ذاهب إلى الحرب؟

– نعم إلى الحرب.

– أذاهب أنت لمقاتلة الألمان؟

– إن وقع نظري على أحد منهم.

– تمنياتي الطيبة يا عزيزي.. يجب أن تأتي ثانية، فيما بعد.. حفلة كبيرة.. بومي وبين.. وداعاً، يجب أن أذهب إلى فراشي!

وبدأ كوكسون يدفع المقعد، فقالت مارجريت:

– عن إذنك يا كارول، سأصعد وأشرف على راحتها.

وكانت مارجريت تبتسم عندما عادت لتقول له:

– لقد تركتها غارقة في النوم، خادمتي هي التي تغير لها ثيابها وترقدها في الفراش، ولكني أحب دائما أن أكون موجودة.. الخامسة والسبعون! يا له من عمر! وهي مع هذا في صحة جيدة جداً بالنسبة لسنها.

وأقبل كوكسون يحمل أقداح القهوة وشراباً معتقاً من إنتاج سنة ١٨٣٤، لأن مارجريت كانت مصممة على أن تحتفل احتفالاً بَليلة الوداع هذهً وانتقلا إلى حجرة الاستقبال حيث كانت النيران تتراقص في المدفأة، فقال:

– لا تشعلي الأنوار لأني أحب العزف على ضوء النار.

واتجه على الفور إلى المعزف، وشرع يؤدي ألحانا صغيرة هينة، لم تكن قد سمعتها من قبل، وكان عزفه جميلاً كالعادة، ولكنه في هذه المرة كان أجمل وأرق، ولعل هذا الجمال كان في أذنيها أكثر مما كان في عزفه.. جلست مارجريت بجانب المدفأة تصغى وتصغى إلى أن امتلأت الحجرة بأطياف السحر المتراقصة أمام عينيها، وكانت طوال الوقت تتخيله راقداً في الخنادق وقد جرحت يداه، تلكما اليدان اللتان يتمثل فيهما كل شبابه ونضرته، وشعرت على الفور بعجزها وضعف حيلتها إزاء هذه الصورة المروعة، فها هو ذا ذاهب إلى مصيره المجهول، وها هي ذي عاجزة عن منعه.

وابتسمت نصف ابتسامة عندما انتهى من العزف، وأقبل نحوها وركع أمام النار لتدفئة يديه. فسألته:

– هل تشعر بالبرد؟

– نعم، جداً.. ويجب أن أقول لك شيئاً سواء أحببت ذلك أم لا، لقد ظننت في البداية أني أستطيع أن أمضى من غير أن أصارحك به، ولكني أري الآن إني لا أستطيع ذلك، لأن الكتمان سيؤلمني ألماً يفوق طاقة

احتمالي؛ يا مارجريت يجب أن تعلمي لأني أريدك أن تعرفي بالضبط ماذا أعني، إني أحبك يا مارجريت، وسواء كان هذا سخيفاً في نظرك أو غير سخيف، فأنا أعلم علم اليقين إني لن أحب أحداً سواك.

وتلاشت جميع خططها وقراراتها في هذه اللحظة وتركتها فريسة لرغبتها وحدها، وأحست بشلل يصيب إرادتها حتى عجزت عن القيام بأي شيء ماعدا شيئاً واحداً، هو الإنحناء بوجهها إلى مستوى وجهه وهو راكع على الأرض.

وبعد قبلتهما الأولى المحرقة غمغم يقول لها:

– لا حيلة لي في هذا.

فأجابته بمثل همسه:

– ولا أنا يا كارول يا حبيبي.

وخيل إليها عندئذ أن سحب الحرب الداكنة أخذت تدنو من الأرض فجأة حتى لامستها. وعلمت أخيراً علم اليقين إنها تحبه. إن الحرب هي التي جمعتهما وهو على حافة الحياة، وهي في قرار الحياة بكل غناه وعنف انفعاله. والحرب أيضاً هي التي توشك أن تفرق بينهما.

وقال لها بصوت أجش:

– عندما أعود، فيما بعد، أريد أن أتزوجك.

– تتزوجني أنا؟

ولكنها علمت عندئذ أنها تريد أن تتزوجه أكثر مما أرادت أن تتزوج أي إنسان آخر في حياتها، بل أكثر مما تمنت أي شيء في عمرها كله.

– ولكن يا كارول، إنك لا يمكن أن تعني هذا!

– ولم لا؟

– نعم، ولم لا؟ هناك عشرات من الأسباب، إنها واثقة من هذا.

ولذا قالت له بعد برهة صمت:

- يا كارول، لا ينبغي أن تكون سخيفين في تفكيرنا، تذكر يا كارول كم تبلغ سني!

– إن سنك لا أهمية لها عندي مطلقاً، أنا لا أفكر فيها قط.

– إن كل ما أفكر فيه هو أنت، أنت فقط، شخصك، وأنا أعني هذا بحذافيره، وما كان ليغير من رأيي أن تكون سنك مائة سنة!

فقالت باسمة:

– إن الموقف كان يبدو أقل سوءاً لو كان عمري مائة سنة، لأنك في هذه الحالة ستكون في الثمانين، أما الآن فيجب أن تدرك وجه الاستحالة يا كارول، إن الناس سيظنوننا مجانين.

– أتقولين مجانين؟ وهل يمكن مهما حاولنا أن نكون أشد جنوناً من العالم كما يبدو في لحظته الراهنة؟

– ولكننا ينبغي ألا نكون مجانين على الإطلاق!

– ولم لا. أنا لا أبالي يا مارجريت. ولم أبال في يوم من الأيام بما يظنه الناس بي. ولا أعتقد إنك في قرارة نفسك تبالين براي الناس فيك أيضًا.

فهزت رأسها وقالت:

- بل إني أبالي يا كارول، وستبالي أنت أيضاً عندما تبلغ من العمر ما بلغت أنا.

– ربما لم أعش حتى أكون في مثل سنك.

وكان هذا صحيحاً، ولذا ارتجفت شفتاها وهي تجيبه:

– فكر قليلاً يا كارول، إنك عندما.. أو إذا صرت في سني.. سأكون أنا.. في الستين! الستين يا كارول! ألست تدرك مبلغ ما في ذلك من الفظاعة؟ لن أبالي أن يسخر الناس مني، ولكن الناس سيسخرون منك أيضاً، وهذا ما لا أعتقد أني أحتمله.

وكانت عيناه تومضان الآن بمثل النار التي تلظت بها شفتاه منذ قليل، وكان هذا كله عجيباً، حتى أنها لم تكد تصدق أنه واقع أمام عينيها، لقد طلب يدها وها هي ذي ترفضه، وكل هذا غير معقول، مثل تلك الحرب التي تزمع أن تأخذه منها لتلقي به بعيداً.

وسألها بصوت حاد:

– هل هذا قرارك الأخير؟ أواثقة أنت إنك لا تريدين أن تتزوجيني؟

– أنا واثقة إني لا أستطيع ذلك يا كارول.

– حتى ولو كنت مهتمة بي.. قليلاً؟

– ومن قال لك أني مهتمة بك؟

وشعرت أن السؤال سخيف، فقد قرأ سخافته في وجهها، وقال وهو يقبض على ذراعيها ويحدق في عينيها:

– بربك يا مارجريت.

وظل كل منهما يحدق في عيني الآخر من غير أن يتكلم، وقد لفهما غموض غريب هائل، اشترك في خلقه الحب والحرب والشباب والسن، لغز غامض لا تستطيع الكلمات أن تجلو غياهبه.

وهتف أخيراً هامساً :

– مارجريت.

وابتسمت وهي تطل من فوقه وشعرت فجأة بفيض من القوة.. ولكنها قوة هادئة مطمئنة لم يستطع أي حب آخر أن يمنحها إياها. قوة ليس فيها شيء من خداع أوهام الشباب، بل إنها على العكس، شعرت بعمرها كما لم تشعر به من قبل، وكأن السماوات وشاح تتدثر به فيمنحها الأمن والراحة.وأخذت تتخلل شعره بأصابعها وتتحدث إليه بحنان دافق وهدوء كامل.

- كارول يا حبيبي، ينبغي ألا نكون سخفاء مضحكين، ولقد كنا سخيفين فعلاً.. ولا سيما أنا، ولا أعتقد إني أستطيع أن أتزوج أي إنسان، هذه حقيقة واقعة، فهناك بومي وهو كما ترى أعزب متمسك بعزوبته لا أمل في إقلاعه عنها، وسيشعر بالضياع التام لو إنني تخليت عنه وفارقته.. أوه! لا يمكنني أن أحتمل التفكير في هذا، وهناك أيضاً أمي.. فلابد أن يرعى شئونها إنسان.. وفضلاً عن هذا لا شك في أنك ستعثر على فتاة في مثل سنك يوماً ما، كلا.. لا تعترض.. إن الحب الأول قلما يدوم.. تذكر حبي الأول.. لقد خيل إلى يومئذ أني سأموت غما، ولكن ها أنا ذا الآن قد أوشكت أن أنساه تماماً!

ونهض واقفاً وهو يضحك فتحطمت تعويذة السحر، وأشعل سيجارة، وقال لها وهو يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً:

– أما أنا فقد آمنت فعلاً بسبب حبي الأول.

وبصورة ما فارقته حداثة سنه ورنت ضحكته الغريبة الجافة في أذنيها رنين الرجولة الكاملة، أحست أنها مهما منحته فستكون مدينة له بذلك الشباب الغرير الذي جردته منه، كانت مستعدة أن تمنحه في هذه اللحظة أي شيء على سبيل التعويض عن شبابه المسلوب، ولكنه لم يطلب شيئاً. بل قال بعد لحظة صمت:

– يا إلهي! إني أكاد لا أصدق إني وجدت الجرأة على معاملتك على هذا النحو، وإني لآسف جداً.

– لا عليك، أعزف لي شيئاً.

– إن سمحت لي فلن أعزف شيئاً، كل ما أصلح له الآن هو الصمت، ولن أفلح في أداء نغم مستقيم، وربما كان الأفضل لي الآن أن أنصرف.

– نحن بعيد العشاء، وأمامك فسحة من الوقت.

– لا أريد أن أتعرض لطوارئ الطريق بسبب السرعة!

– تناول كأساً على الأقل قبل أن تذهب.

– لا بأس بهذا، وشكراً لك.

وذهبا إلى حجرة الطعام فصبت له قدحاً كبيراً من الويسكي؛ فقال لها وهو يتجرع كأسه دفعة واحدة:

– مع أحسن التمنيات لمستقبلك.

– ولك أيضاً.

– هل قلت إن بومى وبينج سيعودان غداً؟

– نعم.

– بلغيهما أطيب تمنياتي.

– سأفعل.

– إني أتركك في رعايتهما.

فضحكت وقالت:

– أحقاً؟

– نعم، ولاسيما في رعاية بينج.

– أنا ..أنا لا أدري ماذا تعني؟

فقال وهو يضع كأسه:

– إني لم أنس الطريقة التي كان ينظر بها إليك تلك الليلة ونحن على المائدة.. ولكن لا بأس، إنه أهل لذلك.. أتسمحين لي أن آخذ هذا الثقاب لأشعل به مصابيحي؟

فأومأت برأسها وتبعته إلى البهو، وخيل إليها أن دهراً قد انقضى وهو يرتدي سترته الجلدية استعداداً لركوب الدراجة البخارية، وقالت له:

– ستكون الرحلة شديدة البرودة في العراء.

وأجابها بلا اكتراث:

– لست أبالي، أنا لا أبالي شيئاً.

ووقفت بجانبه أمام الباب ريثما أشعل المصابيح وأعد آلة الدراجة للعمل، فقال لها:

– أخشى أن تصابي ببرد.

فأجابته في أسى واجم:

– لست أبالي، أنا لا أبالي شيئاً أيضاً.

فنظر إليها وضحك ثم تصافحا، ولم يكن هناك قمر، وإنما هي السماء الزرقاء الداكنة الصافية الأديم الوشاة بالنجوم، وقال كارول:

– وداعاً يا مارجريت!

– وداعاً يا كارول!

وكان هذا كل شيء، وبعد ذلك انفجر هدير الدراجة البخارية يهتك هدوء الليل ثم طواه الظلام فوق دراجته، وظلت هي واقفة حيث كانت إلى أن اختفى عن ناظريها آخر بصيص لأنوار الدراجة، ثم انتظرت بعد ذلك أيضاً لأنه خيل إليها أن صدى هدير الدراجة يتردد بين التلال. فكان لابد لها أن تتريث الى أن يتلاشى هذا الصدى، ثم عادت أدراجها إلى الدار وهي تشعر بإعياء شديد يستولي على سائر أطرفها.

وانقضت عشرة أيام بعد رحيل كارول من غير أن تسمع عنه شيئاً أو تصلها رسائل منه، ولم تكن تتوقع أن يكتب إليها، فلم يكن ثمة اتفاق بينهما على شيء من ذلك، ولكن في اليوم الحادي عشر جاءتها رسالة منه يخبرها فيها أنه لم يشترك بعد في قتال حقيقي وإن كان دوي المدافع يصل الى أذنيه، وأن جميع الجنود في جميع الجيوش المتحالفة يعتقدون أن الحرب ستضع أوزارها قريباً، وأن صحته على خير ما يرام، وأنه يستمتع بالحياة "على نحو ما"، وكان هذا كل ما في الرسالة لأن نصف السطور على الأقل طمسته يد الرقيب الحربي.

وعلى الفور كتبت إليه رداً عادياً ودياً حافلاً باللغط والثرثرة حشدت فيه جميع أنباء الأسرة كما وردت على خاطرها:

– وقد أسف بومي أسفاً شديداً لأنه لم يتمكن من مقابلتك قبل أن تسافر، وقد طلب مني أن أبلغك أطيب تمنياته، هل هناك أي شيء تحتاج إليه أو أي شيء تحب أن نرسله إليك؟ إن ذلك خليق أن يدخل السرور العظيم على أنفسنا.. فنحن نشعر بالوحدة هنا كما هي العادة عند اقتراب الخريف، ولكن لدينا أعمالٌ كثيرة، وسيأتي بينج وليلى للعشاء في الأسبوع القادم، وهذا معناه مجهود إضافي للطاهية ولي، وابن أختي بيتر الذي قابلته في المرة الأخيرة عندما كنت في زيارتنا دخل المدرسة، ويبدو سعيداً جداً بذلك.. وأمي حالتها كما هي وقد طلبت مني أن أبلغك تحياتها.

وقضت مارجريت طيلة بعد الظهر بعد إرسال ذلك الخطاب في مساعدة الطاهية بالمطبخ، وبعد الشاي ذهبت لتعد أمها لاستقبال بينج، واستقباله يسرها دائماً، وكان موعد العشاء في الثامنة، وقبل الثامنة بربع ساعة ذهبت الى حجرتها لترتدي ثيابها، وبينما هي تمشط شعرها حملت إليها الخادمة خطاباً وصل في تلك اللحظة، وعرفت خط كارول وقرأت الأختام العسكرية على المظروف فارتجف قلبها وهي تمزق الغلاف، ولكن أول عبارة وقعت عليها عيناها كانت: "أنا بخير وسلام".

فكان لرد الفعل أثر قوي حتى لقد كاد يغمى عليها فارتمت فوق الفراش مسلوبة القوة، وبعد قليل استطاعت أن تقرأ الرسالة.

"عزيزتي مارجريت:

هذه أول فرصة تسنح لي بالكتابة إليك منذ أيام، وأنا بخير وسلام، ولكن الموضوع الذي ناقشناه في مقابلتي الأخيرة لك لما يزل له تأثير قوي على نفسي، ويسبب لي اضطراباً كثيراً. وقد خيل إليّ في البداية أني سأستطيع تناسيه، ولكني لم أستطع..

وأشعر أن كل شيء هنا يتوقف على هذا الموضوع، وإني أعلم أنه من الإجحاف الشديد بك أن أقول لك هذا الآن، ولكنها الحقيقة، فليتك تستطيعين على الأقل أن تمنحيني ولو نصف وعد. فإنه سيمنحني أملاً كافياً، ويشعرني أن الحياة ممكنة ..أعلم أني أسأت عرض المسألة في هذه السطور، ولكني واثق أنك ستقدرين الظروف التي أكتب فيها، وقد كانت لديك دائماً قدرة فائقة على الفهم والتقدير، وربما لم تتح لي بعد هذا فرصة للكتابة إليك مدة طويلة من الزمن.".

وتلت ذلك سطور شطبها الرقيب فلم يترك إلا الإمضاء وخيل إليها إنها لم تفهم شيئًا من القراءة الأولى، ولاسيما لأن الرسالة كلها مكتوبة بحبر بنفسجي وبخط سريع مضطرب.

وأعادت تلاوة الرسالة، وقبل أن تتمها سمعت رنين الجرس في الطابق الأسفل يدعو أهل البيت إلى المائدة.

إذن قد وصل بينج وليلى!

ووضعت الرسالة في درج مكتبها الصغير وأغلقتها بالمفتاح، ثم أسرعت تتم تصفيف شعرها.

الفصل الحادي عشر

مهرجان النصر

وعلى مائدة العشاء بدا كل شيء مهتزاً غامضًا في عينيها، فصار بينج ذا سحنة بشعة، وكان صوته المرتفع، وضحكه المرتفع، يسيطران على الحجرة، وإلى جواره جلس بومي بادي السعادة ولكنه متوتر الأعصاب شيئاً ما، ولذا لم يكن حديثه طلقاً يسيراً كعادته، وكانت أمها جالسة بجوار النار تحدق في المائدة، وعلى شفتيها ابتسامة ثابتة لا تتغير، وبين الحين والحين كان بينج يلتفت إليها فجأة وسألها:

– أليس هذا رأيك أيضاً يا أمي؟

فقد كان ينادي حماته بهذا الاسم دائماً، وكانت عند سماع هذا السؤال تتصلب عضلاتها وملامحها كالقطة المتوجسة وتقول:

– نعم.. نعم يا بينج.. أنا متفقة معك في الرأي جداً يا بينج.

وكانت ليلى جالسة بجوار مارجريت ومجوهراتها الثمينة الكثيرة تتلألأ، لقد تخلى عنها جمال صباها الآن، لأن بينج والأطفال استنزفوا حيويتها ونضارتها، ومع هذا ظل بينج حنوناً كريماً على طريقته الخاصة، فهو لا ينفك يشتري لها الهدايا الباهظة الثمن.. وكانت هديته الأخيرة لها قلادة

يزيد ثمنها على ألف جنيه، كانت ليلي مزهوة بها، تريها لكل إنسان وتطري رقة زوجها وطيبة قلبه.

وفي نهاية الوجبة قدمت الأشربة المسكرة، فأومأت الأم كعادتها الى كوكسون كي يدفع مقعدها، ولكن بومى قال:

– أبقي قليلاً يا أماه!

وكان غريباً جداً أن يحدث منه هذا، وانتظر الى أن انصرف كوكسون، ثم قال بعد أن صب لنفسه ولبينج كأسين من البورت.

– الحقيقة أن لدي مسألة أريد أن أفاتحكم فيها جميعا!

وكان وجهه محتقناً، وهو يرفع الكأس إلى شفتيه ويشربها جرعة واحدة حتى الثمالة، وقالت الأم بصوتها الخفيض:

– نعم يا بومى.. نعم.

فقال بصوت يكاد لا يسمع:

– كنت في المدة الأخيرة أفكر في الزواج.

وظهرت الدهشة على وجه بينج فمال إلى الخلف في مقعده بحركة أحدثت صوتاً مسموعاً، أما مارجريت فازداد إحساسها بالهدوء وكأنها صخرة تضطرب من حولها الأمواج من كل الجهات. وقال بينج:

– أتمزح يا بومى؟

– كلا.. كلا، بل أنا جاد كل الجد، لقد كنت أفكر حقاً في هذا.

وكان هذا آخر ما كانت تتوقع أن تسمعه، ولكنه فسر لها ما لاحظته على أخيها في المدة الأخيرة من الشرود ونوبات الضحك والمرح المتقطعة لقد كان الرجل عاشقاً، وبدا لها هذا في أول الأمر أدعى للضحك، ولكنها أحست وراء هذه الرغبة في الضحك نوعاً من القلق والشعور بالصدمة.

– ولكنك يا بومى يجب أن تحدثنا عنها، من هي أولاً؟

– لا أظنك تعرفينها يا أماه، اسمها مس بريذويت، وهي في المستشفى العسكري القريب من هنا. فصاح بينج.

– لا أظنك تعني تلك الفتاة القصيرة البدينة التي تقوم بالتدليك في المستشفى العسكري؟

– هي بعينها، وهذه هي المرأة التي سأتزوجها، وقد خطر إلى أنه من الأفضل أن أخبركم مجتمعين بهذا النبأ.

وأفاق بينج من ذهوله فصاح:

– وماذا تنتظر مني الآن؟ أن أهنئك مثلاً؟

– هذا شيء مرجعه إليك.

– ولكن الفتاة في نحو العشرين فيما أظن؟

– أعتقد أنها في الرابعة والعشرين.

– وأي شيء هي فيما عدا أنها مدلكة؟ من أين أتت؟ ما أسرتها؟

– لا أدري ما أسرتها، وماهي أسرتك أنت؟

فجاء هذا السؤال اللاذع غريباً جداً على لسان بومي الذي لم يسمعه أحد في حياته كلها يقول كلمة مسيئة كهذه، مما جعل بينج لا يكاد يصدق أذنيه، وطغت دهشته على غضبه فقال:

– ماذا جرى لك؟ يجب أن تدرك أن هذا الزواج غير مناسب.

– يؤسفني أنه لا يسرك، ولكنه سيتم وفي التاسع عشر من الشهر القادم يا بينج.

– أتعني أنك تقدمت إليها وقبلتك وأن كل شيء قد اتفق عليه؟

– هذا هو الواقع.

– إذن أنت وربي أحمق الحمقى!

فكاد الدم يتفجر من ملامح وجه بومي، ثم هز كتفيه هزة يسيرة وقال:

– شكراً لك يا بينج.

– فكر يا رجل في عمريكما! وفي طبقتيكما أيضاً، فسوف تكون لهذا أهميته الكبيرة! إن معرفتي بالفتاة سطحية جداً وليس عندي أي شيء ضدها، ولكني لا أستطيع أن أتصورها في مكانها المناسب في هذه الدار!

ستجعل من نفسك أيها الرجل أضحوكة للمقاطعة كلها! الرجل الذي تزوج مدلكته! وهذا ليس بينه وبين الزواج من طاهيته إلا خطوة واحدة! ألا تدري ما الذي تريد أن تصنعه بنفسك؟ أم أنت مفتون بها حتى إنك لم تعد تبالي ما تصنع؟

وكانت مارجريت منذ أعلن بومى النبأ ثابتة في مكانها، تحاول جهدها أن تتغلب على دهشتها، وكانت أكبر بواعث هذه الدهشة إن بومي لم يطلعها على سره من قبل، وأنه تقدم لخطبة الفتاة وأتفق معها على الزواج من غير أن يصدر عنه تلميح، وآلمها ذلك، ولكنها في الوقت نفسه كانت تسأل ضميرها أي حق لها في أن يفضي إليها من أسراره بأكثر مما تفضي إليه من أسرارها؟ ولم تجد جواباً مقنعاً عن سؤالها، ولم يترك لها صوت بينج العالي فرصة للتفكير الهادي ولكنها وجدت نفسها تنهض وتدور حول المائدة حتى تصل الى مكان بومي، ووجدته يحملق فيها بدهشة يكاد يمازجها الخوف، ثم قالت له وهي تهش في وجهه:

– دعني يا بومي أكون أول من يتقدم إليك بالتهنئة، إني أهنئك بإخلاص قلبي.

وتناولت يده وأبقتها في يديها برهة، فوجدتها باردة كالرخام فالتفتت نحو بينج وقالت له وهي تواجه وجهه الضخم، وعينيه الزرقاوين القويتين:

– أعتقد يا بينج أنك تجاوزت الحد كثيراً، فلبومي الحق الكامل في أن يتزوج أية امرأة يشاء؛ فلماذا تتدخل في شأنه الخاص؟

فضحك بينج، وقال:

– أنا أعلم الناس يا عزيزتي مارجريت أنك أحصف من أن تقري زواج بومي من هذه الفتاة، فلماذا تتظاهرين بغير ذلك؟

– ليس من شأني أن أقر أو أعترض، وليس هذا من شأنك أيضاً. فلنا جميعاً الحق في الزواج ممن نريد، كما كان لك هذا الحق عندما تزوجت من ليلى.

– إذن أنت تؤيدينه؟

– نعم، تأييداً مطلقاً، إني أؤيده أيا كانت الفتاة التي يتزوجها، ولا أدري كيف جرؤت على أن تكون وقحاً إلى هذا الحد معه ؟!

– لقد أعربت له عن رأيي الصريح يا مارجريت، وهذا كل شيء، وها أنت تبدين إليّ الآن رأيك الصريح فيّ، ولا اعتراض لي على هذا.

– إنه لم يكن رأياً صريحاً، بل إنك كنت كعادتك تفرض إرادتك، ولن نخضع أنا وبومي لإرادة أحد يا بينج، وكلما أدركت ذلك سريعاً كان ذلك أفضل لك!

فهز كتفيه الضخمتين وابتسم قائلًا:

– وهو كذلك، هذا رأيك أنت، والآن ما هو رأي الآخرين؟ أليس لهم الحق أيضاً في أن يقولوا شيئاً؟ ما رأيك أنت يا ليلى في هذا كله؟

ونظر الى زوجته التي أجابت وكأنها تلميذة تردد درساً محفوظاً:

– إني أوافقك يا بينج، وأعتقد أنه من السخف أقدام بومي على الزواج من فتاة كهذه!

– وأنت يا أمي، ما رأيك؟

ولكن السيدة العجوز كانت قد استغرقت في النعاس، وهكذا كان شأنها إذا حل موعد نومها مهما كانت المناقشة حامية ومثيرة، بل إنها قد تنام فجأة وسط جملة من كلامها هي؛ فقال بومى:

– يحسن أن نجعل كوكسون يأخذها إلى حجرتها.

وكانت لحظات انتظار حضور كوكسون ثم دفعه المقعد كافية لتهدئة حدة التوتر، وتبينت مارجريت ذلك، فقالت وهي تهم بالخروج:

– يجب أن أذهب لأطمئن على راحة أمي، طابت ليلتكم.

وتركت الجميع يتمون احتساء أشربتهم، وبعد أن فرغت من عمليات الإشراف المعتادة كل ليلة، دخلت حجرتها، وطالعت خطاب كارول مرة أخرى، وتبينت أن صور الرجال الثلاثة كارول وبينج وبومى تراود ذهنها، وتجوب أنحاءه، كأنهم نمور تذرع أقفاصها الحديدية، فقامت إلى النافذة وفتحتها، وكان القمر قد صار بدراً، والليل رطباً ساكناً.

وفي نحو الساعة العاشرة طرق الباب بومي ودخل عليها متوهج الوجه بالدماء التي تكاد تطل من ملامحه وفي عينيه بريق، وكان واضحاً أنه

يعاني من التوتر العصبي، ويتوق إلى التفريج عن نفسه بالحديث معها، ولم تكن هي أقل توتراً منه، وأشعل سيجارة وجلس بجانبها، فقالت له:

– هل انصرف بينج وليلى؟

– نعم.

– أظنهما شعرا بوجوب الإنصراف بعد الذي قلته لهما، ولكن كان ينبغي أن أوقف بينج عند حده، مع إني أكره هذه الاصطدامات.

– لقد أحسنت جداً بالوقوف إلى جانبي يا مارجريت.

– هذا أقل ما أفعله بعد كل هذه السنوات التي قضيناها معاً

– وهذا ما أخجلني، فقد شعرت بعد إعلان النبأ أمام الجميع أنه كان من الواجب أن أخبرك أنت أولاً.

– هذا شيء لا قيمة له، فلا تعذب نفسك بسببه، واعلم أن كل ما يهمني هو سعادتك، ولا يعنيني ما هي الترتيبات التي ستتخذها للزواج فالمهم أن تكون موفقاً، واعلم أني كثيراً ما سألت نفسي لماذا لم تتزوج!

– وأنا أيضاً كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال نفسه بشأنك!

– أنا يا بومي؟ لو أنني أردت أن أتزوج لتزوجت، وهذا من الأسباب التي جعلتني أقف في صفك، والآن حدثني عن بولين.

وشعرت كأنها أم تشجع طفلها على الاعتراف بأسراره، فأفضى إليها بمعلومات قليلة بعد استدراج كثير، قال لها إن بولين فتاة من لندن يتيمة الأبوين، وأن والدها كان مستخدماً في شركة للتأمين وأن الأسرة محترمة، ولكنها ليست على مستوى اجتماعي بالطبع.

– إني واثقة أنها ظريفة، إلا لما جذبتك إليها!

– نعم هي ظريفة، وإن كان هذا لا يبدو لكل إنسان طبعاً، لقد قال عنها بينج إنها بدينة ولكني لا أظنها بدينة، وإن كانت طبعاً ليست في نحافة ليلى.

– هل هي مغرمة بالموسيقى؟

– أظن هذا.

– وهل تحب الحدائق؟ سيكون لطيفاً جداً أن تجمعكما هذه الهواية!

– أظنها تحب الحدائق أيضاً.

– أليست في الرابعة والعشرين، كما قلت؟

– بلى، وأنا في الرابعة والأربعين، وهل لهذا أهمية؟

– لا أظن، ما دام هناك تناسب بين الشخصين في كل شيء آخر.

– أتعنين هذا حقاً يا مارجريت؟

– أعتقد هذا

– هذا جميل، وأنت على حق، فما قيمة فارق السنوات، وخصوصاً حينما يكون الرجل هو الأكبر سناً؟

– بل إني أذهب إلى أبعد من هذا يا بومى، وأعتقد أن هذا الفارق لا أهمية له حتى حينما تكون المرأة هي الأكبر سناً.

– حقاً؟

– ولم لا؟

– هل إذا كانت بولين في الرابعة والأربعين وأنا في الرابعة والعشرين ألا يكون ذلك سخيفاً ومضحكاً؟

– أتظن ذلك؟

– ألا ترين أنت ذلك؟

– ربما.. ربما.

– إننا على اتفاق في جوهر الموضوع، وهو أنك لا ترينني أسن بكثير من أن أتزوجها!

– إني يا بومى أعتقد أن البشر لا يمكن أن يكونوا أسن من أن يقدموا على أي شيء لديهم القدرة عليه والرغبة فيه.

– عظيم.

– وإذا لم يكن لديك مانع، فأنا أحب أن أرى بولين.. متى يمكنني أن أراها؟

– أنت رائعة حقاً يا مارجريت، لم يخطر ببالي أنك ستقابلين النبأ بهذه الروح، وسآتي ببولين معي غداً إن كان هذا يوافقك، ومن المستحسن أن تأتي لتناول الشاي، لأن لديها عملاً في المستشفى في الصباح وفي المساء، سآتي بها بعد الظهر، ولكن لا تخبري أمي، إذ يحسن أن تقابلها في فرصة أخرى.

وتركها بومى ليذهب كعادته كل ليلة إلى الحديقة الشتوية، وسمعته وهو يهبط الدرج يصفر بأنغام لحن شاع في المدة الأخيرة، فأدركت أن كلامها أسعده كثيراً، ثم طالعت رسالة كارول مرة بعد مرة إلى أن أصبحت كل كلمة من كلماتها كائناً حياً يتعلق بها وهي جالسة وحدها في حجرتها:

"لو إنك فقط فتحت لي باب الأمل ووعدتني نصف وعد.." وفجأة شعرت أنها لا تبالي مما سيقوله بينج أو بومي أو أمها أو العالم كله، نعم إنها ستقدم على ذلك العمل الباسل الجميل الذي تشعر أن لديها القدرة عليه والرغبة فيه، ستتزوجه! ستمنحه نفسها جسداً وعقلاً وروحاً، لن يعنيها بعد ذلك شيء، لأن كل ما عدا هذا سيكون بمثابة خيانة للأنوثة القصوى التي تشعر بها في أعماقها.

وعلى فرض أنه سئمها يوماً وقد علت بها السن وهو لم يزل في ريعان شبابه، فلن يضيرها أن تتركه يومئذ لامرأة أخرى، وسيسعدها أن تعيش بجمال الفعل الجريء الذي واتتها الشجاعة على تحقيقه!

وجلست فكتبت إليه رسالة قصيرة بسيطة.. تخبره فيها أنها قد غيرت رأيها وأنها سوف تتزوجه. وذهبت بنفسها فألقت بالخطاب في صندوق البريد خارج أسوار البيت، فلما فرغت من ذلك الأمر الذي لا رجوع بعده، أحست بالسعادة تغمر قلبها وتفيض منه، لقد كانت هذه فرصتها الوحيدة، وقد واتتها الشجاعة على انتهازها!

ولما عادت إلى البيت استقبلها بومى في البهو وسألها:

– هل كنت تتنزهين؟

فأومأت إليه برأسها. فقال:

– لقد أفادك استنشاق الهواء فائدة هائلة، انظري في المرأة إلى لون بشرتك، يا له من لون رائع ..والحقيقة أننا كلينا لا يبدو علينا سناً .

وعقد ذراعه بذراعها وأوقفها بجانبه أمام مرآة وصاح:

– انظري! من ذا يقول إننا كلينا قد تجاوزنا الأربعين؟ ولكننا تجاوزناها، ومع هذا لا أعتقد أننا كنا أحسن صحة ولا أنضر منظراً مما نحن الآن!

وأتى بومى ببولين لتناول الشاي بعد ظهر اليوم التالي، وكانت كما قال بينج وكما أنكر بومى بدينة قصيرة، ولكنها وسيمة، ولها صوت يدل على ثقافة وذكاء، ولغتها في الحديث مهذبة راقية، وشعرها جميل، ويداها بديعتان للغاية، فشكلها العام ليس منفراً إنها مقبولة ولكن ما الذي حمل بومى على التفكير في الزواج منها؟ هذا مالم تستطع مارجريت أن تتصوره.

وكان الجو جميلاً فأخذ الثلاثة يتنزهون بين خمائل الحديقة قبل تناول الشاي، وتحدثت بولين كثيراً عن العمل في المستشفى.. ولعل هذه كانت وسيلتها لإخفاء ارتباكها، وكان بومي يتعمد أن يعامل بولين في الظاهر كما يعامل أي إنسان آخر، ويصر على إخفاء إعزازه وحبه، فبدا في كلامه معها مهذباً مجاملاً جداً كعادته مع جميع الناس، لم يرفع التكليف، أما هي فلم تستطع مارجريت أن تدرك حقيقة شعورها نحو بومي، وهل قبلت الزواج منه عن حب أم طمعاً في المال والمركز الاجتماعي، إنها لا تبدو ذات دهاء، ولعلها قبلت الزواج منها لأن أحداً سواه لم يطلب يدها.

وبعد الشاي انتهزت مارجريت فرصة توجه بومي لإعداد السيارة كي يقلها إلى المستشفى، وقالت لبولين:

– أقدم إليك التهنئة وآمل أن تكتب لكليكما السعادة.

– أشكرك كثيراً جداً، وأظننا سنسعد معاً لأنه إنسان ظريف.

ولم تسنح الفرصة لمزيد من الكلام بينهما، لأن بومي عاد، وسأل مارجريت عن رأيها في بولين قبل أن يصحبها، فقالت له:

– أكرر لك التهنئة، وهي في الواقع جميلة، وما أبدع هاتين اليدين!

وبعد انصرافهما أحست إحساساً جازماً أن بومى مهما كان لطيفاً ظريفاً فلن يستطيع فهم علاقتها بكارول، فلابد أن يفاجئه ذات يوم وهو بين أزهاره في الحديقة ويعلمه برغبتهما في الزواج.

وكذلك سيواجهان معاً بينج وجميع الناس، بإعلان أشبه بإنذار أخير منه باعتراف أو إفضاء.

وشهدت الأيام الأخيرة من أكتوبر تحول الحرب إلى طوفان من الإنتصارات التي لا يكاد يصدقها العقل، فكانت أخبار النصر هي المسيطرة على الصحف والتليفون وأحاديث المائدة، وكان بومى متحمساً جداً لهذه الأنباء، فجعله الحب والتحمس شديد الرضا عن نفسه، وراضياً حتى عن بينج، وذات يوم قال لها وقد انقضى أسبوع على حفلة العشاء التي أعلن فيها رغبته في الزواج:

– أتعلمين يا مارجريت أن بينج صار لطيفاً معي جداً في الأيام الأخيرة، ودعانا للذهاب إلى بيته وتناول العشاء في الأسبوع القادم، أنت وأنا وبولين؟ وأظنها طريقته الخاصة في التلويح بغصن الزيتون.

وكان كلامه عن بينج بلهجة التلميذ الذي يتحدث عن الناظر المرهوب المحترم!

وأقيمت تلك المأدبة في مساء ٣ نوفمبر، وفي ذلك اليوم نفسه وقعت النمسا الهدنة وسلمت تسليماً كاملاً، واحتل الإيطليان تريسنا وأقيم مجلس وطني في المجر، وتمرد البحارة الألمان في كييل، وتقدمت القوات الفرنسية والأمريكية ثمانية أميال على طول الجبهة الغربية، وفي نهاية السهرة، بعد العودة الى البيت في الساعات الأولى من الصباح، قال بومي لمارجريت إن الليلة كانت رائعة.

وظلت مارجريت في انتظار خطاب من كارول وإن كانت في الظاهر تقاوم كل إحساس بالتطلع أو القلق، لأنها كانت تعلم أن الحرب تؤخر الخطابات، وأن الأحداث الأخيرة تساعد على مزيد من التأخير ولذا لم تشعر بمرارة كبيرة عندما أقبل الأسبوع الثاني من نوفمبر ولم تصلها رسالة من كارول.

وفي هذه الأثناء كانت الحرب تتجه اتجاهاً سريعاً إلى نهايتها المحتومة، وكان ذلك عسير التصديق على الناس الذين تعودوا استمرار المعارك وتعاقبها تلك السنوات الطويلة، لم يصدقوا أن الحرب يمكن أن تنتهي كما بدأت في لحظة معينة، من ساعة معينة، في يوم معين!

وفي ذلك اليوم المكفهر، يوم الاثنين الحادي عشر من نوفمبر كانت مارجريت جالسة تحرر الشيكات لمصروفات البيت الشهرية، عندما رن جرس التليفون، وكان المتحدث بومي من مكاتب مصنع السيارات في جلوسستر:

– هناك شائعة قوية عن احتمال توقيع هدنة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم، وقد تنبأ مثل هذه الإشاعة عن لا شيء، ولكني قدرت أنك تحبين أن تعرفيها، والعمال هنا بسبب هذه الشائعة لا يستطيعون العمل، وهذا طبيعي فيما أعتقد، قولي للسائق روجرز عندما يأتي للإحضاري أن يأتيني بعلبة سجائري، فقد تركتها على المنضدة في حجرة نومي.

وفي الحادية عشرة رن جرس التليفون مرة أخرى وسمعت صوت بومي مختلطاً بصفارات المصنع وصياح مئات الناس:

– تم توقيع الهدنة يا مارجريت، أتسمعين صفاراتنا وهتاف العمال؟ الجميع هنا يكاد يخرجهم الفرح عن صوابهم، سنغلق المصنع بقية اليوم، أرسلي روجرز فوراً ليأتي بي.

انتهت الحرب إذن، وغمرها شعور بطيء متمهل من السعادة، كان شعوراً قوياً بلغ من شدته أنه سبب لها ألماً؛ لقد توقفت المدافع وانتهى خطر الفارات ولم يعد هناك خطر يتهدد كارول في الجبهة.

إنها تستطيع الآن أن تشعر بما لم تشعر به من قبل بالعاطفة الصافية القوية التي تربطها به، وكأنها كانت لا تجرؤ على حبه والحرب تهدد سعادتهما، فكأن تلك السعادة كانت محتبسة، ثم أفرج لها عنها دفعة واحدة.

ورن جرس التليفون مرة ثالثة، وتحدثت بولين من المستشفى وكانت شديدة الفرح والحماسة وكانت تتكلم كالمجنونة:

– أريد أن أرقص واقفز أو أمشي على يدي، أريد أن أفعل أي شيء، لقد كلمت بومي الآن في المصنع، وطلبت منه أن يأخذنا لقضاء السهرة في لندن الليلة، فلابد أنه ستكون ثمة احتفالات تستحق المشاهدة في الويست اند، فهل تأتين يا مارجريت؟

– أتريدينني حقاً أن آتي؟

– طبعاً أيتها البلهاء! ثم إن بومي لن يذهب إذا لم تأت أنت فأخلاقه لا تسمح له بالسهر مع خطيبته من غير حراسة! وخصوصاً أننا قد نسهر إلى الصباح.. استعدي على كل حالي لأن بومي يري أن نذهب بعد الغداء مباشرة.

وجاء بومي لتناول الغداء وأخذ يشرح لها مبررات تلك الرحلة، وكأنه يعتذر عن شيء سخيف:

– أنا لا أهضم المظاهرات والزحام، ولكن بولين مصممة على الإشتراك في أفراح الليلة في لندن. ولا شك أنه سيفرح قلبها أن ترى لندن متلألئة بأنوارها لأول مرة بعد الحرب، ويحسن أن تأمري كوكسون بإعداد بعض الطعام لنحمله معنا، فقد لا نستطيع الليلة أن نحصل على طعام يستحق الذكر في زحام لندن، وأعتقد أننا سنأخذ السيارة الليموزين الكبيرة ولا أظنك تضيقين بالذهاب معنا.

– كلا على الإطلاق.

وشرب بومي نصف زجاجة الشمبانيا، ثم ذهب إلى الحديقة ليتفقد أزهاره وأشجاره، ودعا مارجريت للطواف معه، ولكنها اعتذرت وصعدت إلى حجرتها كي تبدل ثيابها، ثم نزلت إلى قاعة الجلوس، وقرأت إحدى المجلات في انتظار عودته، وأصدرت الى كوكسون تعليمات بشأن المشروبات التي يضعها في السيارة مع الطعام.

وبعد لحظات رجع إليها كوكسون وفي يده بضع خطابات وصلت لتوها، وكان أحدها دعوة لحضور سوق خيرية راقصة، وكان هناك خطابان آخران يحويان فواتير من التجار، أما الخطاب الرابع فأدهشها في البداية لأنه يحمل طابع بريد فرنسيا، وبخط يد لا تعرفه ولم تره من قبل وفضت الخطاب وقرأت منه.

"عزيزتي مس فرينشام:

"أكتب إليك هذا بتكليف من المسكين كارول، لقد كان أعز أصدقائي. وكنا كلانا في غارة جوية.. وطلب مني إذا حدث له مكروه أن أكتب إلى خطيبته لأخبرها أنه كان في قمة السعادة بسبب الخطاب الذي وصله منها في الصباح قبل قيامنا بالغارة بساعة واحدة، وسلمني عنوانك، ولم يعد المسكين؛ ولذا فإني أكتب إليك لأقول أن وفاته كانت سريعة ولم يشعر بأدنى ألم..

وليم ت. جيفرسون

وألقت برأسها على ظهر المقعد الذي كانت جالسة عليه، ومن بعيد جاءها صوت بولين وبوسي يناديانها كي يركبوا السيارة إلى مهرجان النصر.

الفصل الثاني عشر

صدام عنيف

أقبل بومي يخترق الحدائق في بزة أنيقة غاية الأناقة، ودبوس ربطة عنقه الماسي يلمع في ضوء الشمس، ورأته مارجريت من بعيد حينما غادر سيارته عند المنعطف وتقدم يمشي نحو الدار في خطوات سريعة خفيفة، والإبتسام يفيض من وجهه وكأنه صورة أخرى من إشراق السماء في ذلك اليوم الدافئ الشمس من أيام يوليو.

ولما أصبح على مسافة عشر خطوات منها خلع قبعته، فعبث الهواء عبثاً يسيراً بشعره، وهتفت مارجريت:

– أهلاً بك يا بومي.

– لقد خطر لي أن أمر بك لأستفسر عن أحوالك!

وكانت هذه عبارته التقليدية التي يبادرها بها كلما حضر.

– هل كنت تجرب سيارتك الجديدة؟

– نعم! إنها آخر طراز فاخر، وبها كل التحسينات، كيف حالك؟

– على أحسن حال، وأنت كذلك فيما أرى.

وكانت مارجريت تجمع أزهاراً من الحديقة، أزهاراً حمراء فحملتها في يدها واقترحت عليه التجول في الحدائق، وهو الإقتراح الذي كانت تعرضه عليه في كل زيارة فكان يقبله دائماً في تلهف. ويظل يسأل عن آخر أنباء الأزهار الجديدة.

وأثناء التجوال سألها:

– كيف حال الوالدة؟

– كما هي.. وكيف حال بولين؟

– على ما يرام، وهذا يذكرني بأني وعدتها أن أعود لتناول الغداء في ساعة مبكرة.. والحقيقة يا مارجريت أني أريد أيضاً أن أحدثك في موضوع معين..

– عن بولين؟

– كلا، لقد سويت هذه الموضوعات، أو على الأقل تركنا الخوض فيها، كلا يا مارجريت، ليس حديث اليوم عن بولين، بل عن بينج...

– بينج؟

– نعم، ويحسن أن أكون صريحاً معك، لأني سأكلمك في موضوع وعدت بينج وعداً قاطعاً ألا أخبرك به، فهل ترين أن ذلك يجوز لي؟

– عزيزي بومي، يا له من سؤال توجهه إلى امرأة لديها نصيب طبيعي من الفضول النسوي! كيف يخطر لك أن جوابي سيكون لا؟

فضحك واحمر وجهه قليلاً ثم قال:

– الحقيقة أن الرجل على شفا انهيار عصبي فيما يلوح لي، وإن كان من الصعب التصديق بأن بينج يمكن أن يصاب بانهيار عصبي ولكن أمتن الحبال لابد أن ينقطع إذا اشتد الضغط عليه، ولا شك في أن بينج اكتنفت حياته بالمتاعب والمنغصات الضخمة في الفترة الأخيرة، من سوء الأحوال التجارية إلى الإضراب العام.. فضلاً عن متاعب الأسرة.

– هذا صحيح، وإني مسرورة لحصوله على لقب البارون، فهو في الواقع يستحق ذلك.

– وهذا اللقب أيضاً أتعبه الحصول عليه، لأن الكثيرين كانوا يحاربونه، حتى أنه منذ شهر يأس تماماً من صدور الإنعام، ومنذ أيام أفلت زمام أعصابه من يده وجعل يصيح في المكتب أن الدنيا كلها تحاربه، وأن القدر يعاديه، وأن رجال الحكومة والعمال وأولاده وأسرته كلهم ضده، وخص بالإشارة، خصك أنت!

– أنا؟ هل قال إني ضده أيضاً؟ ولكنه على خطأ في هذا!

– لقد اعتذر بعد ذلك، واستخرج مني وعداً بألا أخبرك، ولكني أعتقد أن هذه الفكرة راسخة في أعماقه، وربما نشأت لديه من كونك لا تدعينه في المدة الأخيرة إلى غداء أو عشاء.

– وأنت أيضاً لم تدعه مرة واحدة؟

– وهو أيضاً لم يدعني إلى بيته مطلقاً.

– وهل تذهب إن دعاك؟

– غالباً لا، فأنا لا أستريح لتمضية الوقت معه، وليس هذا لأني لا أحبه أو لا أحترمه أو لا أعجب به، بل لأنه يميل إلى السيطرة بصورة لا تستريح إليها النفس.

– وهذا شعوري، ولكنه مخطئ في اعتقاده أنني أحاربه، فمنذ وفاة ليلى وأنا أتمنى أن أهب لمعاونته.. ولكني لم أقدر أنه بحاجة إلى معونة، فهو في العادة يضيق بكل من يبدى له أنه عاجز عن القيام بكل شيء على أحسن وجه.

– هذا كله صحيح، فهذه طريقته وهذا طبعه، ولكن يخيل إلي أنه لو أمكنك أن تفعلي شيئاً يبين إنك لست ضده كما يظن، كان ذلك أفضل.

– وماذا تقترح في هذا الشأن؟

– أنا لا أريد أن تصنعي شيئاً تكرهينه، ولا أن يكون تصرفك واضحاً بحيث يدرك أنني فاتحتك في الأمر، مجرد لفتة، وأعتقد أن الإنعام عليه بلقب بارون يعتبر فرصة مناسبة لهذه اللفتة.

– وكيف ذلك؟

– تذكرين أننا كنا في الخارج عندما صدر الإنعام، فلم يتح لنا إلا أن نبعث إليه برسائل التهنئة. ونحن الآن في أرض الوطن، وفي دارنا، فربما كانت مأدبة عشاء صغيرة..

– هنا؟

– طبعاً، فهذا هو أهم ما في الموضوع كي توجهي إليه الدعوة.

وطبعاً توجهينها لي ولبولين أيضاً، وإن كنت أتوقع منها ألا تحضر.

– سأفكر في الأمر يا بومى.

وبعد انصراف بومى ظلت معظم فترة الصباح تفكر، فتراءى لها أن الحظ قد تنكر له في الفترة الأخيرة فعلا.. وكانت بداية فشله في الانتخابات ثم ماتت ليلى في السنة التالية، وكانت وفاتها فجأة على إثر إصابة بالإنفلونزا، وأعقب ذلك إضراب عام بين عمال جميع المصانع، ثم إضراب عمال الفحم، ثم ارتفاع أسعار المطاط، وكثير من المواد الأولية ارتفاعاً جعل بينج يشكو ويتذمر، ولولا الإنعام عليه بلقب بارون لكانت حالته المعنوية في منتهى السوء، وبدا لها أن إقامة حفلة عشاء كما اقترح بومى ابتهاجاً بحصول بينج على ذلك اللقب عمل يدل على المجاملة، وينعش معنوياته.

وفي المساء تحدثت إلى بومي بالتليفون ثم أرسلت رقاع الدعوة إلى مأدبة العشاء الصغيرة في مساء التاسع عشر من الشهر، وكما توقع بومي

اعتذرت بولين، لأن حالتها النفسية بسبب الحمل لا تسمح لها بحضور مثل هذه المناسبات، وهي في الوقت نفسه لم تكن يوماً من الأيام وداً لبينج أو ليلى.. ولكنها سمحت لبومي أن يتركها ويذهب، ومع هذا قال بومي أنه لن يسهر طويلاً.

ووجهت الدعوة أيضاً إلى بيتر أكبر أبناء بينج الذي التحق بجامعة كمبردج، أما إخوته فما زالوا أصغر من أن توجه إليهم الدعوة. وكم أدهش مارجريت نجاح تلك المأدبة الصغيرة، وكان بينج بادي الإنشراح، فأكثر من رواية الحكايات الطريفة والنكت اللاذعة، وكان سنه الآن خمساً وخمسين سنة، وقد أضفى عليه مزيداً من الجرأة، فأصبح صوته أعلى من ذي قبل، وضحكته المجلجلة تهز الجدران، فكان من يراه ويسمعه يعتقد أنه أبعد الناس عن الإنهيار العصبي، وكان ابنه بيتر لطيفاً لبقاً، تبدو عليه معالم الشخصية القوية بعد أن أمضى عاماً في الجامعة، وقد أصبح شاباً نحيلاً وسيماً أزرق العينين، متفوقاً في ملاعب الرياضة، ينم حديثه عن اطلاع واسع، فهو يتكلم بطلاقة عن فرويد وبروست وبيكاسو، وكان واضحاً أنه شديد التأثر بالنظريات الجديدة، ولم تكن لمارجريت دراية كبيرة بهذه المستحدثات فكانت تصغي لما يقول ابن أختها باهتمام وإعجاب.

وفطنت من نظرة عينيه كلما ذكر اسم أبيه أن العلاقة بين الأب والابن ليست منزهة عن الشوائب، بل أنه صرح لمارجريت بقوله:

– أبي يريدني أن انضم إلى إدارة المصنع، ولكني طبعاً لن أرضخ لهذا، فأنا أمقت هذا النوع من العمل.

وفي الساعة العاشرة أصر بومي على الإنصراف، فقرر بينج أن ينصرف أيضاً، وصعد الجميع لتقديم التحية الواجبة للوالدة العجوز في حجرة نومها، ووجدوا صعوبة في تبادل الحديث معها لما طرأ عليها من ثقل السمع، ولكنها حرصت على تهنئة بينج بالرتبة، وعلقت مارجريت على ذلك بقولها:

– إن الممرضة تقرأ لها جميع الصحف الصباحية والمسائية، رغم ما يكلفها ذلك من رفع الصوت ساعات طويلة.

وفي البهو قال بومي :

– أليس رائعاً أن تكون صحيحة الأعضاء حاضرة الذهن، وهي في هذه السن.. في الخامسة والثمانين؟

فحملق بينج في وجهه لحظة ثم هز كتفيه وقال:

– أتسمى هذا شيئاً رائعاً؟ أتمنى من الله ألا أعيش حتى أبلغ هذه الروعة، أسأله متى أمسيت عاجزاً عن العمل المثمر مفتقراً إلى القوة الكافية للإنتصار أن يضع حداً لأيامي!

وفي هذه اللحظة أدركت مارجريت أن الرجل يمر بمحنة نفسية حقيقية، ولم يكن قد استأنف بعد ذلك فرحة الصاخب كالمعتاد، ولم

ينس وهو يودع مارجريت أن يدعوها لرد الزيارة بعد ثماني سنوات من الإنقطاع، كان انقطاعاً، ولكنها لم تكن قطيعة، لأن الاتصال المباشر أو غير المباشر كان مستمراً عن طريق بومي، وكان بينج يكتب إليها أحياناً ليقدم إليها النصح في مسائلها المالية التي يعرف عنها كل شيء، وإليه يرجع الفضل في مضاعفة ثروتها بعد الحرب مباشرة عن طريق البيع والشراء في بورصة الأوراق المالية، وفعل مثل ذلك بثروة أخيها ووالدتها، فلم تدر ماذا يكون مصيرهم جميعاً لولا جهوده وحصافته.

وفي أواخر شهر أغسطس تلقت هي وبومي الدعوة لزيارته في ضواحي جلوسستر بالقرب من المصنع، وكان بيته فخماً تبدو عليه مظاهر النعمة الحديثة. وكان خدمه جميعاً من الدرجة الثانية لأن الممتازين لا يطيقون معاشرة رجل حاد الطبع مثل بينج، ولكنه كان يعلل ذلك بأن خدم هذه الأيام جميعاً من البلاشفة.

وكان معظم حديثه على المائدة عن الإضرابات، وكان إضراب عمال الفحم لم يزل قائماً، وكأنما شاء القدر أن يمعن في إغاظته فجاءه الساقي يقول:

– تحت نوافذ البيت يا سيدي جمع كبير من المنشدين، إنها فرقة جوالة تغني وتجمع التبرعات لعمال الفحم المضربين.

– يا اللعنة! قل لهم أن يذهبوا إلى الجحيم.. بل انتظر! قل لهم إني أحب أن أقابل واحداً منهم. واحداً فقط، وعندما يختارونه جئني به!

ولما خرج الساقي لتنفيذ هذا الأمر قال لمارجريت وبومي:

– سترون الآن مشهداً طريفاً، لأنهم يعرفون من أنا وسيختارون لمقابلتي أخطر بلشفي فيهم.. وسأعرف كيف أتعامل معه!

وبعد قليل دخل القاعة شاب نحيل اللون في نحو الثلاثين من عمره وقبعته في يده، ويرتدي إحدى بذلات العمال الزرقاء، وحدق الغريب في كؤوس الشراب والأطباق التي تزخر بها المائدة وفي الشمعدان الضخم. وبادره بينج بقوله وهو يضطجع في مقعده ويعض على طرف السيجار الضخم:

– والآن يا سيدي ما المسألة؟

– أنت أرسلت في طلبي.

– ذلك لأني أريد أن ألقي عليك بضعة أسئلة، أولها من أنت وماذا تفعل في جلوسستر بحق الشيطان؟

– أنا من فرقة المنشدين لصالح عمال مناجم الفحم في ويلز، ونحن نجمع التبرعات لزوجات وأطفال العمال المضربين.

– إنك تبدو كما لو كنت لم تأكل شبعك منذ شهر!

– هذا صحيح فعلاً.

– الذنب في هذا ذنبك، فلا يجوز أن تعيشوا من خير البلاد من غير أن تؤدوا عملاً.. هل أنت جائع؟

– نعم.

– وسيزداد جوعك إلى أن ينتهي الإضراب.

– .....

– وهل جميع زملائك جياع؟

وسر مارجريت أن تري عيني الغريب تومضان كأنهما جمرتان، ويصيح:

– نعم كلنا جياع، ولكننا نفضل الهلاك جوعاً على أن نقبل فلساً واحداً من ابن فاعلة مثلك!

وقبل أن تبدو آثار الدهشة لهذه الكلمة النابية على الحاضرين، ترنح الشاب وسقط فوق مقعد مغشياً عليه، فأسرعوا جميعاً لنجدته وصب بومي في فمه كأساً من البراندي، وأسرع بينج يفتح النوافذ، وبعد قليل أفاق الشاب، فسأله بينج بخشونته المعتادة:

– كم عددكم؟

– عشرون عازفاً ومغنياً.

– ادخلوا بعد نصف ساعة من الباب الخلفي وسيقدم لكم الطاهي جميعاً عشاء كاملاً أيها البلاشفة الأنجاس، ولا تحاول أن تجادل!

ولم يكن في استطاعة الفتى أن يجادل لو أنه أراد، وخرج معتمداً على ذراع الساقي. وساد التوتر جو القاعة بعد خروجه، وأبدي بومي رغبة في الإنصراف كي لا يترك بولين وحدها. ولم يبد بينج إلا إلحاحاً يسيراً جداً لاستبقاء الشقيقين.

وفي السيارة أظهر الشقيقان امتعاضهما لسلوكه الفج السوقي:

– أياً كان لقبه فهو لا يمكن أن يكون جنتلمانا يا بومي!

– كلا يا مارجريت، لن يكون جنتلمانا ما عاش.

وكان هذا كل تعليقهما على الموقف.

وفي ذلك الصيف كان نظام حياة مارجريت رتيباً خالياً من أي تغير، فهي عادة تتناول فطورها في الفراش، ثم تغادره في منتصف العاشرة فتفض بريدها وتكتب بضع رسائل، ثم تصعد إلى حجرة أمها فتقضى بها نحو ساعة، وتخرج في سيارتها ذات المقعدين مدة نصف ساعة، وتعود لتناول الغداء، ثم تخرج مرة أخرى بعد الظهر للنزهة في سيارتها المكشوفة وتتناول الشاي في احدى البلدات المجاورة، ثم تعود لتناول العشاء، وقليلاً ما كانت تدعو أحداً للعشاء، لأن بومي لا يستطيع قبول الدعوة من غير بولين، وبولين لا تحبها، وقد أيقنت من ذلك منذ عامين على أثر مشادة كلامية كشفت عن خفايا الصدور.

وفي المدة الأخيرة صارحها بومي بأن بولين تبدي سخطها إذا فارقها وهي لا تستطيع الخروج بسبب الحمل، فأدركت مارجريت أن بولين تستغل هذا الظرف لتملي على زوجها ألا يزور شقيقته في المساء، وهو في الصباح مشغول غالباً في العمل بالمصنع، وزوجته لا تفتأ تتصل به تليفونياً لتتأكد من أنه لم يذهب لزيارة مارجريت!

وكان تعليق مارجريت على ذلك أنها ضحكت وقالت:

– كم بقي لها على الوضع يا بومى؟

– ثلاثة أشهر.

– أراك!

وضحك الإثنان، لأنه كان من المستحسن في هذا الموقف أن يحملا الأمر على محمل الهزل لا الجد.

وفي هذه الفترة كان بينج غارقاً إلى أذنيه في محاربة نقابات العمال، وكان يشعر بإرهاق عصبي شديد سيسلمه إلى الإنهيار، ولم تفلح محاولة بومي لإقناعه بعدم جدوى هذه المعارك ضد النقابات، لأن هؤلاء الناس إنما يطالبون كأي إنسان بمستوى معقول من الحياة، وأنهم لو وجدوا شيئاً من حسن المعاملة لما جنحوا إلى التمرد والإضراب، وفي هذه الحالة لن يجد المتطرفون مجالاً صالحاً لتهييج الخواطر.

وذات صباح اختلس بومي زيارة قصيرة لها، وأخبرها أن بينج قرر الدخول في معركة الانتخابات الفرعية في دائرة ملفورد وشعاره "مناهضة الاشتراكية"، مع أنه من المعروف أن هذه الدائرة دائرة عمالية، ولن تكون أمامه أقل فرصة للنجاح، ولكنه فيما يظهر ينشد الإشتباك في معركة حباً في العراك نفسه، وسيكون له في هذه الانتخابات ما يريد من صدام خشن، ستثخنه الجراح من غير أن بفوز بشيء من غار النصر.

الفصل الثالث عشر

الأب والأبن

وقبل أن ينتصف شهر أكتوبر علمت مارجريت أن بينج يواجه مزيداً من المتاعب، فالمصادمات الليلية التي حدثت في اجتماعاته الإنتخابية بدائرة ملفورد، والتي أتت على وصفها الصحف، كانت تدل على أنه يواجه في تلك المعركة أعنف امتحان صادفه في حياته.

وكانت هناك محنة أشد من هذا لا يعرفها عامة الناس، ومصدر هذه المحنة ابنه البكر بيتر الذي أثار سلوكه في كمبردج سخط والده الشديد، ففي ذات يوم اتصل بومى بمارجريت في الصباح تليفونياً وقال لها:

– لم أستطع أن أستخلص من بينج ما الذي ارتكبه الفتى بالضبط، وأعتقد أنه أسرف في الإنفاق، أو انحرف في هذا الاتجاه أو ذاك. وبينج على كل حال ثائر ثورة لا يتصورها العقل لهذا السبب لم يكن ينقصه إلا هذا، وهو يلاقي الأمرين من المعركة الانتخابية الفرعية ومتاعب المصنع.

– أتظن أننا نستطيع أن نمد يد العون؟

– العون؟ لمن منهما؟

– لكليهما، أو لأحدهما فهذا اعتبار ليست له أهمية كبيرة إن استطعنا أن نصلح ذات بينهما.

– في وسعك أن تحاولي ذلك إن شئت. أما أنا فقد حاولت ولم تكن النتيجة مشجعة، لقد اقترحت عليه أن أسرع إلى كمبردج وأتحدث إلى الفتى بطريقة ودية، ولكن بينج قال إن ما يحتاج إليه ذلك الفتى ليس الحديث الودي بل حبل المشنقة، فإذا كان هذا هو اتجاه تفكيره فأظن..

نعم إنها تستطيع أن تخمن معظم تصرفات بينج واتجاهات تفكيره، ولكن المسألة كانت ذات صبغة هامة بالنسبة لها رغم اجتهاده في أبعادها عن ذهنها، باعتبارها مسألة لا تخصها. وظلت هذه المشكلة تلح في تفكرها ويا لأسرة أختها الراحلة من أسرة عجيبة! فهذا بيتر في الثامنة عشرة في الفرقة الأولى بالجامعة، وهذا ميكي في السابعة عشرة بالفرقة الأخيرة بالمدرسة الثانوية وهذه جون في السادسة عشرة رئيسة القسم الداخلي بمدرستها الراقية، وهذا بريان في الخامسة عشرة يحذو حذو ميكي خطوة بخطوة، وهذان هما افريل في العاشرة وروبرت في السابعة في مدرسة ابتدائية داخلية في شلتنهام، وكلهم أشبه ببينج منهم بليلى، فشخصياتهم جريئة وفيهم نصيب ضخم من غريزة النزال، وكانت ليلى في حياتها عاجزة تمام العجز عن سياسة أمورهم، ولذا نفضت يديها منهم في سنواتها الأخيرة، وأدخلتهم جملة في المدارس الداخلية، فهذه المتاعب التي يثيرها بيتر ربما لم تكن إلا مناوشة أولية تسبق معركة طويلة بينه وبين الأسرة لابد في النهاية أن تنتهي بهزيمة بينج.

وشعرت مارجريت مرة أخرى بشيء من الشفقة به؛ فهي تعلم تمام العلم أنه يخفي وراء مظهره العاصف الجافي تعلقاً حقيقياً وحناناً على أطفاله، وأنه أنجب كل هذا العدد من الأطفال لأنه يحب الأطفال ويريدهم.

ولذا شعرت مارجريت وهي تقود سيارتها نحو ملفورد ذات صباح من شهر أكتوبر بثقة غريبة تملأ جوانحها، وكان رأيها قد استقر على مواجهته صراحة وسؤاله بلا مواربة عن موضوع بيتر، وأدهشها أنها لم تشعر بعد أن استقر رأيها بأدنى خوف منه.

ووصلت إلى ملفورد قبل الظهر، وهي بلدة صناعية بالقرب من برمنجهام، تزدحم بالمصانع وخطوط السكك الحديدية وبصفوف متشابهة من الأكواخ، وتعتبر قلعة من قلاع العمال الإنتخابية، لأن نائب البلدة كان دائماً من ذلك الحزب، فكان ترشيح بينج لنفسه هناك عملاً من أعمال التحدي المقضي عليه بالفشل سلفاً، وأمام مقره الإنتخابي رأت لافتات ضخمة بحروف نارية (انتخبوا بينجلي واخذلوا الحمر!) وبعد قليل وجدت نفسها تواجهه برأسه الضخم وكتفيه العريضتين الماليتين وشعره القصير الأشهب، فكأنه الخليط عجيب من لويد جورج وهندنبرج، كان يبدو قوياً كالجبل الراسخ، بيد أن نظراته تمت عن إرهاق عصبي شديد، ولما خاطبها بدا صوته كالرعد الضعيف:

– مارجريت.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل كل شيء على ما يرام؟ وبومي؟ والوالدة؟ وبولين؟

– كلنا بخير، ولكني فكرت في الحضور لمقابلتك عندما سمعت أن هناك متاعب بخصوص بيتر، فخطر لي أنني ربما..

فقاطعها بحدة قائلاً:

– بيتر! لا تشغلي نفسك به، أظنك كنت مفتوحة الأذنين لذلك اللغط الفارغ الذي يدور بصدده؟

– قلت لك يا بينج أنه وصل إلى علمي وجود مشكلة تتعلق به، وأنه خطر لي أنك ربما كنت مشغلاً هنا في الوقت الحاضر ولذا قد أستطيع القيام بدور في حل هذه المشكلة نيابة عنك.

وثبتت نظراتها في عينيه كأنها تتحداه أن يكون فظاً، فقال برقة تخفي تهكمه:

– ولكن كيف بالله تظنين إنك مستطيعة مد يد العون؟

– بيني وبين بيتر صداقة قوية، إنه صلب الرأس كما أعلم، ولكني أظن أن لي بعض التأثير عليه.

– أعظم من تأثيري أنا ؟

– الجواب نعم ما دمت مصراً على السؤال.

وتوقعت أن ينفجر بركان غضبه، وانتظرت ذلك الثوران بهدوء شديد، ولكنه سألها بكل هدوء:

– وهل تعرفين موضوع المشكلة؟

– كلا.

– إذن أنت تتكلمين على غير أساس، فلو عرفت الحقيقة لأدركت إنك لا تستطيعين شيئاً.

– إذن خبرني هذه الحقيقة.

– يا عزيزتي مارجريت، أنا لا أريد لك ولا لغيرك أن تتعبوا أنفسكم وتصدعوا رؤوسكم بمسألة خصوصية تماماً محصورة بيني وبين ابني، لقد كان فضلاً منك أن تأتي وأنا أقدر دوافعك، ولكنك في الواقع ضيعت وقتك، والآن تعالي نتغدى معاً إن لم تكوني في عجلة من أمرك.

وفي هذه اللحظة دخل أحد الموظفين وقال لبينج:

– موعد الاجتماع الإنتخابي أمام مصنع صهر المعادن بعد خمس دقائق يا سيدي، والسيارة معدة.

– يا الشيطان! لقد نسيت هذا تماماً، ولكن لا بأس بهذا يا مارجريت، تعالي معي وسننتهي من هذا الاجتماع بسرعة ونتغدى بعد ذلك.

– ليكن.

ونزلا إلى الشارع وركبا معاً سيارة فورد صغيرة مكشوفة، اخترقت بهما شوارع وأزقة ضيقة بين بيوت متداعية، وكان بينج يتحدث طول الوقت عن أفكار الشيوعية وعملاء البلاشفة والمهيجين المحترفين، ولكنها لم تكن ملقية إليه بالها معظم الوقت.

وعندما وقف السائق بالسيارة أمام مصنع الحديد الكبير، بدأت صفارات المصنع نشيدها المزعج. كانت لحظة انصراف العمال للغداء وتدفق المئات من الرجال والنساء من جميع أنحاء المصنع، وفي مدى دقيقة واحدة كانت السيارة محاطة بجمهور صاخب لاغب، وبينج واقف ليلقى خطبته. ولكن جمهوره من العمال لم يظهر أي استعداد للإصغاء، فظل يشغب على الخطيب بالصفير والعواء والنهيق، فشعرت مارجريت بسخافة حضورها هذا المشهد، وإن سخافة بينج كانت أشد حين دعاها للحضور، ومع ذلك شعرت بمتعة لخروجها من دوامة حياتها الرتيبة إلي مثل ذلك المشهد المثير.

وظل بينج يجأر ويصيح، فاستطاع بفضل الإصرار والمثابرة أن يتغلب على الشغب، وظهرت على ملامحه الضخمة إمارات الزهو والنشوة عندما تمكن من إرغامهم على الإستماع إليه، وكان الشرر الذي يتطاير من عينيه وهو يصب عباراته النارية بعد ذلك يجعل منه صورة رائعة لجواد عتيق من جياد الحرب، استثارت كوامن النزال فيه دقات الطبول ودوي الرصاص؛ وكانت عباراته نفسها تبدو هزيلة بالقياس إلى صورة ملامحه وتعبير نظراته،

كان أقوى ما فيه ليس عقله ولا لسانه، بل تلك الحيوية الطاقية التي شعر بها جمهور خصومه شعوراً حسياً خفياً فانكمشوا متضائلين أمامه جماعة ووجدانا.

وألقى خطبته كلها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، ولكن من غير طائل، لأن تجريحه الشديد لخصومه وتنديده العنيف بهم حري أن يكسبهم عطف السامعين، وعجبت مارجريت كيف يطمع في كسب معركة انتخابية بهذه الوسائل؟ ولماذا – وهذه أسلحته– يصر على خوض مثل تلك المعركة؟ وشعرت مارجريت بالإرتياح الشديد عندما بدأت السيارة تتجه بهما إلى وسط المدينة، وفي خير فنادقها انتحيا ركناً لتناول الغداء، وظل طول الوقت يكلمها بصوته المرتفع متفاخراً بآرائه، وكان واضحاً أنه مسرور بصحبتها، وصارحها بأن ثباتها بجواره في ذلك الإجتماع الصاخب أثار دهشته وإعجابه، ثم سألها عن رأيها فقالت ببساطة:

– إن موقفهم ليدهشني، فلو كنت أعيش في خرائب ملفورد مثلهم لاعتنقت آراءهم حتماً.

– هذا هراء يا مارجريت، وإن كنت أجد لك عذراً أكثر مما أجده لفتى تربي في أرقى المدارس، ودرج في مهاد الترف والنعمة، تصوري أن ابني يتصدى لخصومتي وينضم إلى ناد للعمال في كمبردج ويمسي شيوعياً!

– وهل هذه هي كل المشكلة؟

– يا إلهي! وماذا تريدين ألعن من هذا؟

– لقد ظننت المسألة خطيرة حقاً.

– إنها خطيرة بلا شك، حين يكون هذا الفتى ابني أنا.

فسألته باسمة وبكل بساطة:

– لماذا؟

– أتقولين لماذا؟ أليس الأمر واضحاً غاية الوضوح؟ انظري إلى مركزي، إلى سمعتي، إلى ...

– وكيف يمكن أن يؤثر سلوك بيتر في هذا كله؟

فحملق في وجهها بعينين تتقدان كالجمر، وأخرج من حافظته قصاصة من قصاصات الصحف الشعبية. وكان عنوانها: "الابن يخطب ضد أبيه..موقف سياسي فريد في ملفورد" وقرأت القصاصة:

"من بين الشخصيات التي تمرر قيامها بإلقاء الخطب الانتخابية لصالح المرشح الاشتراكي في معركة الانتخابات الفرعية بدائرة ملفورد، المستر بيتر بينجلي ابن السير اوين بينجلى المرشح المناهض للإشتراكية في هذه الدائرة عينها، وقد أثار هذا الموقف الفريد فضول جميع الناس في الدائرة، فمستر بيتر بينجلي شاب دون العشرين من العمر وطالب بجامعة كمبردج".

ولما ردت إليه مارجريت القصاصة سألها:

– أترين هذا الموضوع تافهاً هيناً؟

– لعل فيه من الطرافة أكثر مما فيه من التفاهة!

– طرافة؟ ها أنت ترين أني أقاتل ضد جميع الاعتبارات في هذه المعركة، ثم أرى ابني البكر يدخل المعركة ليقاتل في صفوف أعدائي أتسمين هذا شيئاً طريفاً؟

– سواء كان طريفاً أو غير طريف، فهذا شيء أصبح مألوفا في أيامنا، فالبدعة الجديدة أن ينضم أبناء الأغنياء إلى حزب العمال، انظر إلى بلدوين!

– إني أدرك الآن كم أساء إليه انضمام ابنه الى الاشتراكيين!

– بالعكس! لقد أفاده هذا كثيرًا لأنه أثار إشفاق الناس عليه .

وكانت هذه العبارة القشة التي قصمت ظهر البعير، فتقلصت ملامحه وصاح بها عبر المائدة:

– وهل تظنين أني أبتهج لشعور الناس نحوي بالشفقة؟ إني أستطيع أن أتحمل كل شيء في الدنيا ماعدا هذا!

ولكنها كانت مشفقة عليه آسفة له، فمنذ بضع سنوات كان من ألمع الشخصيات في إنجلترا، ولم يكن أحد يتوقع له التعثر في يوم من الأيام، وها هو ذا الآن يشعر بتكالب جميع القوي والعناصر ضده، وقالت له وهي تنهض منصرفة:

– ربما قابلت بيتر قريباً يا بينج.

فأشار بيده إشارة ليس لها معنى معين وقال:

– وهل أملك أن أمنعك من رؤياه؟

وبعد ثلاثة أيام رحلت إلى كمبردج بالقطار، واستقبلها بيتر بسرور شديد قائلاً:

– ما أعظم ابتهاجي بحضورك يا خالتي مارجريت، لأني كنت بحاجة ماسة للتحدث معك.

– وأنا كذلك، وهذا هو سبب حضوري.

وفي حجرته التي تطل على الفناء الكبير في كلية الثالوث بادرها بقوله:

– أظنك تعلمين أنني سأخطب في ملفورد؟

– علمت هذا، ودهشت لأنني لم أكن اعلم أنك تهوى الخطابة.

– لم أكن أهواها في البداية، ولكني جربتها في اجتماعات الإتحاد وأظهر بعض الناس تقديراً لموقفي الخطابي.

– إن الخطابة شيء جميل وموهبة عظيمة.

– عندما يكون الإنسان متفوقاً فيها، ولكن أخشى أن أكون متحدثاً من طراز عادي جداً.

– التمرين كفيل برفع المستوى وتلافي الأخطاء، وأظن أهل ملفورد وجهوا إليك الدعوة كي تلقى خطبتك هناك؟

– نعم، فمرشح العمال له صديق في نادي العمال هنا، وكنت قد وعدت النادي بالمساعدة في أية معركة انتخابات فرعية، وكان هذا قبل أن أعلم أن والدي ينوى ترشيح نفسه في ملفورد، فلم يكن في وسعي التنصل من وعدي بخصوص مسألة عامة بسبب عائلي خاص.

– بل يبدو لي أن ما تسميه سبباً عائلياً خاصاً حري أن ينهض عذراً لو أنك أردت الخروج من المأزق حقاً.

– ربما، ولكني لم أرد ذلك!

فصمتت وجعلت تنظر إلى وجهه الجاد، إنه شديد الشبه بأبيه، وهو مثله مقاتل مطبوع، وقالت له بعد حين:

– أعطني سيجارة يا بيتر.

وللفور تلاشت الحدة من ملامحه وحلت محلها الدماثة والرقة وهو يقدم لها أنواعاً مختلفة من اللفائف الأمريكية والمصرية ثم قال لها:

– أنا لا أقدر رأياً لأحد من أفراد الأسرة مثل تقديري لرأيك، ولذا أحب أن تصارحيني به.

– هذا ما حضرت بسببه يا بيتر سواء طلبت مني رأيي أو لم تطلبه، وينبغي أن تعلم قبل كل شيء أنني لا ألومك على معتقداتك السياسية أياً كانت، فهذا من شأنك وحدك، ولكني أعتقد في الوقت نفسه أن تصديك

لمساعدة خصم أبيك في الإنتخابات بهذه الصورة الواضحة ليس خطأ بمعنى الكلمة، ولكنه فساد ذوق، وهذا هو رأيي وأرجو ألا تضيق به.

فاحمر وجهه احمراراً شديداً، لأن تهمة فساد الذوق لمست فيه وتراً حساساً وقال:

– الحقيقة أنني كنت أفكر في تغيير موقفي لو لم يصلني من والدي خطاب عاصف عنيف، ويكفيني أن أطلعك عليه.

وقدم إليها أربع صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبة على أوراق المصنع، وكانت العبارات مما لا يصدر عن رجل متزن، وناهيك بإملائها على سكرتيره، فما أعنف ما تضمنته من الشتائم والتهديدات، لأن بيتر انضم إلى ناد لا يرضى بينج عن لونه السياسي، فلما فرغت من تلاوة الخطاب سألها بيتر:

– أتلومينني الآن؟

– لا ألومك إطلاقا.

وحضر الغداء الذي أوصى به بيتر ومعه زجاجة من الشمبانيا المثلجة، وانصرفا لتناوله، وكان الحديث على المائدة في موضوعات عادية، ولكن مارجريت فاجأته في نهاية الطعام بقولها:

– إن هذا الخطاب يا بيتر يبدو غير معقول إطلاقاً، غير معقول بحيث لا يمكن أن نحاسب عليه كاتبه، لأنه يدل على أن الكاتب لم يكن

مالكاً زمام نفسه، وينبغي أن تعلم وتدرك أن الإرهاق في العمل قد يؤدي بالإنسان إلى الانهيار العصبي.

– وهل تظنين أن رجلاً مهدداً بانهيار عصبي يخوض معركة انتخابات فرعية معادية بهذه الصورة؟

– لا يقدم على هذا أيضاً رجل يملك زمام نفسه.

– إن والدي رجل عنيد يحب التحدي، كنا ونحن أطفال نراه يلغي إرادة أمي، ويفرض رأيه عليها بلا هوادة، وكانت هي تتحمل منه هذا، أما نحن أولاده فلن نتحمله.

– إنه يحبك كثيراً يا بيتر، بل يحبكم كلكم.

– ولكن طريقة المعاملة أهم لدينا من الحب.

– إنه يعامل جميع الناس بهذا الشكل، هذا طبعه ولا حيلة له فيه.

– ونحن لا حيلة لنا في العجز عن احتماله، إنه يعاملنا معاملة أحط من معاملة الخدم، ولا تحاولي الدفاع عنه فهو من القوة بحيث يتحمل نتيجة أخطائه.

– أنا لا أدافع عنه وإنما أريد أن أذكرك بأشياء معينة، أولها أنه تعرض في المدة الأخيرة لقلق نفسي شديد.

– إن كنت تعنين متاعبه في العمل والسياسية فأنا أعتقد أنه جلب تلك المتاعب على نفسه، فهو ميال للتحدي من غير روية، شديد التجني على خصومه في الرأي، فلا يلومن إلا نفسه لتكالب الناس عليه.

– إني أعرف هذا ولكن المتاعب هي المتاعب على كل حال، ومن متاعبه مالم يكن له فيه يد، مثل وفاة والدتك.

فاغبر وجهه وقال بجفاء:

– هذا موضوع لم أكن أحب الخوض فيه حتى لا أقول قولاً جارحاً، فالحقيقة التي نعرفها جميعاً في بيتنا أنه لو لم تنجب أمي هذه الشرذمة كلها من الأطفال، لما عوجلت وهي بعد في هذه السن الصغيرة!

– وهذا هو رأي أيضاً يا بيتر!

وأدهشه هدوئها فصاح:

– ألا ترين أن هذا شيء فظيع؟

– فظيع جداً.

– ألا يدفعك هذا لكراهية أبي؟

– كلا، فأنا أحب الأطفال جداً فلا أملك أن أكره أحداً لمحبته إياهم ورغبته فيهم.

– أما أنا فأرى هذا شيئاً كريهاً للنفس.

– لقد كانت وفاتها صدمة له على كل حال.

– هذا بفرض أنه كان يهتم بأمرها حقاً، ولو أنه كان متعلقاً بها لما ترك حياتها تذوى وهو متعمد، في سبيل إرضاء نزعته للأبوة الكثير العدد.

– إنك مجادل بارع يا بيتر ولكنك لن تصل إلى إقناعي، والذي لا شك فيه عندي أن والدك يواجه منذ انتهاء الحرب مشكلات كثيرة..

– أعلم هذا، وأعتقد أنه يتحسر على سنوات الحرب باعتبارها العصر الذهبي لأمثاله من الرأسماليين الذين استفادوا منها ولم يشتركوا في القتال.

– إنك شديد القسوة يا بيتر على أبيك، وتصوره في صورة وحش لا قلب له.

– ليس بالضبط أنه ليس بلا قلب، بل آفته أنه بلا خيال، فلم يستطع أن يتصور ويلات الحرب وظنها نوعاً من التنافس الرياضي أو المعارك الإنتخابية، وأنا حين أراجع تاريخ الأسرة في الحرب أشعر بالخجل، فلم يشترك أحد أفرادها في المعارك ولكننا جميعاً أصبحنا أثرياء من صنع محركات الطائرات والسيارات للأغراض الحربية، ولم يشعر أحد من أفراد أسرتنا جميعاً بلحظة قلق شخصي أو أسف أو ألم.

– بل كان منا من عاني هذا يا بيتر.

– من إذن؟

– أنا.

فقالت له بكل هدوء:

– لقد كان لي صديق من أعز من عرفت من الناس وأحبهم إلى قلبي، وقد لقي هذا الصديق حتفه في الميدان قبل الهدنة بخمسة أيام، وكان فتى أمريكياً لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره وقد التقيت أنت به ذات مرة.

فاختفت إمارات العداء من وجهه وقال برنة ندم:

– إني آسف جداً.. لم تكن لدي أدنى فكرة.. أرجو أن تصفحي عني، فأنا لم أقصد إيذاء شعورك.. والحقيقة أنني حين أتحمس لفكرتي تخرج من فمي أبشع الأقوال.

– نعم، مثل أبيك تماماً..

وطفرت الدموع إلى عينيها ومدت يدها عبر المائدة وربتت على يده:

– لا بأس يا بيتر، لست غاضبة، بل وأعتقد أن فيما قلته الكثير من الصواب، فنحن فعلاً أثرينا بسبب الحرب، ولم نتألم كثيراً إذا قيس ذلك بما عاناه سوانا، ولكن لم تكن لنا في ذلك حيلة، لأن الثراء والآلام كانت مصائرها كلها في أيد غير أيدينا.. والآن هل نخرج لنتمشى قليلاً؟

وتقبل اقتراحها بسرور، وخرجا معاً إلى الحدائق المحيطة بالجامعة، وكان البرد شديداً، وكان عاري الرأس لا يرتدي معطفاً، ولكنه كان يشع قوة وحيوية، فلم يفتها أن تدرك شبهه في هذا أيضاً بأبيه، إنه مثل أبيه في كل شيء، في تغير المزاج من النقيض إلى النقيض، وفي الاندفاع العنيف

كالإعصار، ثم الندم والصفاء والرقة بعد انتهاء العاصفة النارية، ولذا رأت في العداء بين الأب والابن وفي الكراهية بينهما مدعاة للسخرية ومفارقة قوية.

وفي بعض الطريق قال لها:

– أظنني أذكر ذلك الأمريكي الذي تتحدثين عنه، لقد أحببته، وأذكر إني ألقيت عليه أسئلة كثيرة عن الجيش الأمريكي.

وتناولا الشاي في مقهى، ولم يتحدثا عن مسألة العلاقات بينه وبين أبيه كثيراً أو قليلاً، ولكن على رصيف المحطة، وقد أوشك القطار أن يتحرك بها قال لها فجأة:

– سألغي رحلتي الى ملفورد، لن ألقي تلك الخطبة.

– إني سعيدة بهذا يا بيتر وشكراً لك على ضيافتك.

– أرجو أن تكرري الزيارة!

– سأفعل، وداعاً!

وعندما وصلت إلى دارها، كتبت رسالة قصيرة إلى بينج تخبره برحلتها إلى كمبردج، وأن بيتر لن يشترك في الحملة الانتخابية.

الفصل الرابع عشر

بعد المعركة

أسفرت المعركة الانتخابية الفرعية في ملفورد عن خذلان بينج بخمسة آلاف صوت ضد أربعة عشر ألفاً فاز بها خصمه العمالي الإشتراكي، وفي اليوم التالي أذيع رسمياً أن مؤسسة لوفل فرينشام لن تدفع أرباحاً للمساهمين تلك السنة، ولم تدهش مارجريت لأي من النبأين، ولكن بومي أرسل إليها بعد يومين مذكرة قصيرة عن أعمال الشركة قال فيها:

"إن العذر الرسمي لسوء الميزانية هو إضراب عمال الفحم، ولكنه عذر ظاهري، فلو لم يكن هذا الإضراب لما كانت حالة المؤسسة أفضل مما هي عليه، وأعتقد أن بينج لم يعد يحسن تصريف الأمور".

ولم يزعجها هذا التعليق لأن مواردها الخاصة من أسهم الشركات الأخرى تكفيها وزيادة، وكذلك موارد أمها، فلن تحتاج إلى ضغط المصروفات في هاي ستاو، وأما عن بومي فحالته ميسورة جداً، ولا تشعر بأي قلق من نحوه، فإذا ضير أحد حقيقة بهذه الأزمة المالية فهو بينج نفسه، وأحست في أعماقها بإشفاق عليه، وهو إشفاق لم تستطع التخلص منه، مع أنها تعلم أنه لا مبرر لإشفاقها إلا التحيز لذلك الرجل رغم عيوبه جميعاً!!

وإذا التحيز هو الذي دفعها غداة المعركة الانتخابية أن تركب سيارتها إلى جلوسستر وتزوره في داره. وكان البرد قارساً بعد ظهر ذلك اليوم – وهو يوم سبت– ولم تكن تتوقع في الغالب أن تجده في البيت، بل وتمنت في سريرتها ألا تجده، ولكنه كان هناك بمفرده في قاعة الجلوس الواسعة يطالع إحدى المجلات، وعلى الفور فطنت إلى مدى قسوة الوحدة التي يعيش فيها هذا الرجل، وهي تعلم أن عدد أصدقائه الحقيقيين قليل رغم كثرة معارفه، فمعظم الناس قد قطعوا صلاتهم به منذ زمن بعيد، لإنه ليس من أبناء العلية وليس جنتلماناً بالمعنى الرفيع للكلمة، والقلة الباقية انصرفوا عنه منذ بدا نجمه في الأفول.

وأذهله أن يراها تدخل عليه، ولكن استقباله لها كان حاراً، وقال متهكماً وهو يصافحها بمودة:

– أظنك جئت لتهنئتي؟

– لكم تمنيت ذلك، والواقع أني جئت لأنك لم ترد على خطابي الذي أبلغتك فيه نتيجة رحلتي إلى كمبردج.

– اعتذر إليك عن هذا التقصير، فقد كنت مشغولاً بدرجة لا يتصورها العقل، وأعتقد أنك تدركين هذا.

– لا بأس، والحديث الشخصي أفضل على كل حال.

– طبعاً، ولابد أن نتناول الشاي معاً.

وتأملته وهي تجلس قبالته فلم تستطع أن تتبين من سحنته ونظرته هل هو منشرح المزاج أو منقبض، وكانت ابتسامته شبيهة بالإبتسامة الأبوية، وأشعل سيجاراً ثم قال لها:

– إذن كانت رحلتك إلى كمبردج موفقة، ولابد أن بيتر أتعبك.

– كان معقولاً جداً، فلم أحتج إلى مجهود كبير في إقناعه.

– أي معقولية هذه؟ أترينه معقولاً جداً لأنه تراجع عن مهاجمتي علناً؟ لقد انتصرت وأقنعته، ولكن ليتك لم تنتصري!

– لماذا؟

– ألا ترين أن في ذلك إذلالاً لي؟ فهو دليل واضح على أنه يكن من التقدير لخالته أكثر بكثير من تقديره لأبيه!

– إطلاقاً يا بينج وكل ما فعلته أنني ناقشته بهدوء. ولو أنك فعلت ذلك لخرجت بالنتيجة عينها.

– تعنين بهذا أنني ما كنت لأفعل ذلك؟ إني مدرك تماماً يا مارجريت أنك لست من المعجبين بي، وأعلم أنك ظللت عشرين عاما تتجنبينني جهد استطاعتك، والآن وقد تقدمت في السن، وضاق صدري جئت تكشفين لي عن سوء رأيك في.

– لماذا تقول هذا؟ على أي أساس؟

– أليست هذه هي الحقيقة؟

– كلا.

– أتريدين أن تقولي إن رأيك في حسن؟

– لا أريد أن أناقش الآن رأيي فيك.

– ولِمَ لا؟ خبريني بحقيقة رأيك فيّ، لقد كنتِ دائماً مستقيمة التعبير، ولا تحاولي أن تراعي شعوري، لقد صمدت دائماً للعواصف والصعاب، فصارحيني الآن برأيك السافر في شخصي.

احمر وجهها إزاء هذا التحدي، وأجابته بحزم:

– سأخبرك إذن ما دمت مصراً، إني أعتقد إنك رجل كان في وسعه أن يغدو عظيماً جداً ولكنه لم يصبح عظيماً، والسبب في هذا ليست الظروف الخارجية بل شيء في دخيلة نفسك، فوسائلك عنيفة وتفكيرك في الأمور من وجهة نظرك تفكيراً متحيزاً، وقد اشتدت هذه الظاهرة في الفترة الأخيرة فتوالى فشلك.

– عظيم! أليس هناك شيء أحسنه؟ ألا أحسن إدارة مصنع للسيارات مثلاً؟

– تعلم كما أعلم أنك حتى في هذا لم تعد ناجحاً كذي قبل، وأما حياتك في الأسرة فلست بحاجة إلى الحديث عنها، فحتى أبناؤك بدأوا يتكالبون عليك.

– أظن أن توقف الشركة عن دفع أرباح للمساهمين هو الباعث الأساسي لك على هذه الصراحة المفرطة في نقدي، فيوم كانت الشركة تودي ٨٠٪ ربحاً سنوياً كنت في نظرك رجلاً لا عيب فيه!

فنهضت مارجريت واقفة وقالت:

– أظن من المستحسن أن أتركك الآن، فأنت لا تعي ما تقوله.

وأخذت تجتاز القاعة الواسعة بخطى بطيئة نحو الباب، حتى إذا وضعت يدها على مقبضه لتفتحه سمعت صوتاً أجشاً يصيح من خلفها:

– مارجريت.. مارجريت أذاهبة أنت حقاً؟

والتفتت وراءها لتراه معتمداً برأسه على كفيه، وكأنه كبر عشر سنوات، كان أشبه بمحارب قديم خرج محطماً من معركة طويلة.

– آسف يا مارجريت، فلا أدري ماذا عراني في المدة الأخيرة، لا تذهبي.

وأحست أنها غفرت له كل شيء فابتسمت وجلست، فقال بصوت أجش:

– فيما قلته لي كثير من الصدق.

– حقاً؟ وفيما قلته أنت أيضاً كثير من الصدق، إننا لم نقدم لك الشكر على شيء مما فعلته لنا وهو شيء كثير، أنت الذي رعيت مصالحنا وأقمت دعائم الشركة، وصنعت لنا ثروتنا، ولا أذكر أننا أبدينا لك مقدار قلامة ظفر من الإمتنان.

– كلانا إذن آسف، مع اختلاف دواعي الأسف.

– هو كذلك إن شئت.

فنهض على قدميه فجأة وضغط زر الجرس وأمر الساقي بإعداد الشاي ثم التفت إليها قائلاً:

– ليتنا كنا صديقين طيلة هذه السنين!

– ليت.. وأظن أن الذنب في هذا ذنبي يا بينج.

– وذنبي أنا أيضاً فقد كنت أظنك تمقتينني.

– أنا؟ ربما، ولكني لم أعد أذكر شيئاً من ذلك.

– حقاً؟ حتى ولا هذه المشاحنة حول خطبة بومى؟

– آه، ولكني أعني ما قبل ذلك، يوم انضممت إلى الشركة.

– أهذا هو الذي لم تعودي تذكرينه؟ إني أذكر هذه الفترة تمامًا وأذكر أول مرة التقينا فيها وكان بومى يطوف بكما أنت وليلى المصنع وقدمني إليكما وأعتقد إنك شعرت بالنفور مني من أول نظرة.

– لا أظن أنني شعرت بنفور يومئذ.

– يا ليتني عرفت ذلك في حينه..

– لماذا؟

– لا أدري، ولكن الأمور ربما اتجهت بعدها غير الوجهة..

ولم يزد، وسكتت هي فلم تسأله إيضاحاً.

وعلى مائدة الشاي تحدثا حول ذكريات قديمة كثيرة، وجرى ذكر لوفل وكيف كانت وفاته، وبينج في زيارته.. وكانت مارجريت في باريس في ذلك الوقت.وقبل انصرافها اقترحت عليه أن يذهب لزيارة بيتر في كمبردج فقال على الفور:

– سأذهب إذا أنت أتيت معي.

فلم تتردد في الموافقة لحظة، وأحست بسعادة غريبة تغمرها وهي تقود سيارتها عائدة إلى هاي ستاو، كانت سعادة مغمورة بالشعور بالقوة والشجاعة والقدرة على إصلاح ما بين الأب وابنه، وبعد ذلك سيكون من اليسير تغيير حالة بينج النفسية، وقررت أن تكتب في تلك الليلة خطاباً إلى بيتر، ولكنها عندما وصلت إلى الدار رأت سيارة بومي هناك، ثم شمت رائحة سجائره المصرية في البهو، ولما دخلت حجرة الجلوس وجدت بومى نفسه مستغرقاً في النعاس فوق مقعد وثير أمام نيران المدفأة، ودهشت وربتت على كتفه فاستيقظ مأخوذًا وصاح وهو ينظر الى الساعة وينهض واقفًا:

– يا إلهي! لابد أنني نمت زهاء ساعة! كيف حالك؟ هل وصلت الآن فقط؟ قيل لي إنك ذهبت لزيارة الجبار الأعظم بينج!

وأومأت برأسها ثم سألته عن صحة بولين فقال:

– بولين على ما يرام، وكذلك أنت فيما أرى، فلا أعتقد أنني رأيتك في صحة أحسن مما أنت الآن.

– هذا تأثير الرياح الباردة.

– نعم البرد شديد.. ما رأيك في التوجه الى الحجرة الأخرى و..

وكف عن الكلام فقالت ضاحكة:

– ونتناول قليلاً من الشراب؟ لا مانع عندي، وأعتقد إنك استغرقت في النوم حتى نسيت أنك لم تعد تعيش هنا.

وبكل هدوء ومن غير انفعال قال لها:

– ليتني لم أزل أعيش هنا، لقد وقع بيني وبين بولين شجار فظيع.

ولم يدهشها قوله، لأنها ظلت طوال السنوات العشر الماضية في حيرة من أمره، ولا تستطيع أن تتصور كيفية حياتهما معاً، وكانت هناك دلائل تبرز بين الحين والحين، وها هو ذا دليل من كلامه على أن بولين لم تفهمه إطلاقاً، كانت واثقة من هذا، فبولين لا تستطيع أن تفهم مثلاً كيف يمكن أن يتشاجر رجل مع زوجته أعنف شجار، ثم ينام نوماً عميقاً وهو في انتظار من يفضي إليه بموضوع النزاع، وسألته:

– أتعرف هي إنك جئت إلى هنا يا بومي؟

– أظنها تستطيع التخمين.

– ألا تعتقد أن هذا قد يزيد الأمور سوءاً؟

– يزيدها سوءاً

وكان واضحاً من لهجته أن الأمور بينهما لا يمكن أن تكون أسوأ مما هي الآن، وأخذ يشرح لها كيف أن النزاع له أسباب ترجع إلى سنوات كثيرة، فبولين تكره الريف وهو شخصياً يشعر بالشقاء والإعياء كلما ذهب إلى لندن.. وحاولت مراراً أن تحمله على اتخاذ بيت في لندن فكان يماطلها ويعدها بذلك في المستقبل من غير تحديد، واليوم بدأت مواالها المعتاد حول هذا الموضوع، ولكن بدلاً من التسويفات التي عودها عليها انفجر سخطه، وتابع حديثه فقال:

– والحقيقة يا مارجريت إني لم أتمالك نفسي، فالأحوال في الشركة سيئة فكيف يمكن في هذا الوقت بالذات أن تطالبني باستئجار بيت أعجبها في شارع بوند بإيجار لا يعلم قيمته إلا الله؟! إنها تريد أن تنتهي بي إلى ملجأ العجزة والشيوخ المعدمين!

– إن الأمور ليست بهذا السوء.

– بل يجب في هذا الوقت أن نقلل النفقات لا أن نزيدها.

وابتسمت مارجريت فهي تعلم أن نوبة التشاؤم تعتريه كل خمس سنوات، وفي هذه النوبة تكون أعصابه في منتهي التوتر، ولكنها لا تلبث طويلاً حتى تزول، ولذا قالت له:

– أنت تعلم جيداً يا بومى أن حالتك المالية على وجه العموم ميسورة للغاية، وأن أرباحك في السنوات الأخرى تكفي لتغطية خسارتك في الشركة وزيادة، فلا يجوز لك أن تتشاءم.

– يجوز أو لا يجوز! أنا لن أخضع لإرهابها المستمر، وإذا كانت لا تريد الحياة هنا فلها أن تذهب وتقيم في بنسيون!

– هل قلت لها هذا؟

– نعم.

– وبعدئذ بدأ الشجار

– نعم.

– أوه يا بومي، هذا كلام ما كان ينبغي أن يقال بأي شكل!

– أتظنين هذا حقاً يا مارجريت؟

– طبعاً، اسمع نصيحتي وعد إليها الآن وأصلح ما بينك وبينها، لأنك كنت في غاية الحماقة.

ولم يجب.. ولكنه نقل الحديث إلى الحديقة والأزهار، وبعد برهة قال وهو يهم بالانصراف الى سيارته:

– يسعدني الحضور إلى هنا ويريحني التحدث إليك بين حين وآخر، سواء رضيت بولين أو لم ترض، لا أستطيع الانقطاع عنك نهائياً. وسأراك قريباً بلا شك.. وإلى اللقاء..

وبعد أن تناولت القهوة صعدت إلى الطابق الأول، وسألت الممرضة عن حالة أمها، ثم جلست بجوار فراشها. وكانت الأم نائمة، فألقت مارجريت نظرة على الستائر، ولاحظت أن أوراق الحائط تحتاج إلى تجديد، ولكن ما الحيلة وأمها ترفض ذلك بإصرار، لأنها لا تريد أن تغادر هذه الحجرة ولو ليلة واحدة؟ وفجأة فتحت الأم عينيها وقالت لها:

– هل عدت يا مارجريت؟ لقد سمعت سيارتك وأنت ذاهبة.

– نعم يا أمي، ذهبت الى جلوسستر لزيارة بينج.

– بينج؟ وكيف حاله؟

– على ما يرام..

وسكتت الأم، لأن هذه الأسئلة كانت كافية لديها لتشعر أن من حولها على قيد الحياة، وأنها لم تزل على قيد الحياة بينهم، ونهضت مارجريت وصاحت:

– طابت ليلتك يا أمي.

ثم همست للممرضة بكلمة تشجيع، واتجهت نحو حجرتها.

وإذا الساقي يسرع نحوها ليقول لها أن ساقي أوين بينجلي تحدث الآن بالتليفون ليبلغها أن السير أوين أصيب بانهيار مفاجئ وأمرت بإعداد السيارة، وعندما مرت في طريقها بباب حجرة البلياردو تذكرت رسالة شبيهة بهذه منذ ثلاثين عاماً، وكان المريض يومئذ أباها.

الفصل الخامس عشر

إصبع القدر

عادت مارجريت إلي هاي ستاو بعد منتصف الليل مباشرة وقد أكد لها الطبيب أنها لا تستطيع المساعدة في شيء حالياً، فهناك ممرضة تسهر عليه، وستنضم إليها ممرضة أخرى، وعلمت منه أن الحالة تدل على انهيار تام بدنياً وعقلياً نتيجة الإرهاق الشديد، وهي حالة خطيرة لأن بنية المريض الحديدية أتاحت له الصمود أطول مما يجب.

وفي الدقائق القليلة التي قضتها في حجرة المريض سمعته وهو في حالة هذيان يطلق صيحات وحشية حول ملفورد والبلاشفة وما إلى ذلك، ولولا أن الموقف بالغ الخطورة لكان مضحكاً للغاية، لأن تلك الصيحات كانت شبيهة كل الشبه بأحاديث بينج وخطبه العادية.

وقضت اليوم التالي في بيت بينج ولكن حالته لم تتحسن، ووصل أولاده جميعاً من مدارسهم، وجاء بيتر من كمبردج، فأثار منظرهم إشفاقها، ولذا صحبته حين عودتها إلى هاي ستاو بريان وأفريل وروبرت، وكانت هذه هي المعونة الوحيدة التي استطاعت تقديمها.

وتغير نظام حياتها في الأسبوع التالي كله، ففي كل صباح تأخذ الأطفال معها إلى جلوسستر، وتقضى النهار كله هناك، وفي كل يوم تتلقى

من الطبيب تقريراً لا يتغير عن حالة المريض وكيف إنها لم تتغير، وفي اليوم الثامن أخبرها الطبيب أن هناك تحسناً طفيفاً وأن الهذيان انقطع.. وأنه يذكر اسمها في هدوء، وأدخلوها إليه فتعرف عليها، وتعلقت عيناه بها في تلهف، وهمس باسمها، ولم

تجد ما تقوله سوى مناداته باسمه، وبعد لحظة صمت سأل عن أولاده ثم طلب أن يراهم، فلما دخلوا نظر إليهم واحداً بعد الآخر، ونمت نظراته عن أعمق الحب وأصدقه، ثم خاطبهم قائلاً:

– لم يعد هناك داع لبقائكم هنا، عودوا إلى مدارسكم وسأسترد عافيتي قريباً.

ولم يقل أكثر من هذا وبعد خروجهم قال لمارجريت:

– أولاد طيبون.. كلهم، من الذي يعنى بأمورهم وهم هنا؟

– الثلاثة الكبار بيترو وجون وميكي يعنون بأنفسهم، أما الباقون فيقيمون معي في هاي ستاو.

– هذا فضل كبير منك يا مارجريت.

ورمقها بنظرة غريبة فاحصة تحمل شيئاً أكثر من الامتنان وأكثر من الإعجاب.

وبعد أسبوع آخر تلاشي الخطر وكان بيتر قد عاد إلى كمبردج وعاد إخوته جميعاً إلى مدارسهم. وظلت مارجريت تأتي كل صباح في سيارتها

مهما كانت حالة الجو والمطر، وتبقى مع بينج ساعة تحدثه إن شاء حديثاً، أو تقرأ له في كتاب أو صحيفة، أو تجلس معه في صمت مأنوس، وكان يتقدم نحو الشفاء ببطء شديد.

وبمرور الأيام أخذ يحدثها بغير احتجاز أو تكلف عن حبه لأولاده، وثقته في حسن نشأتهم، وذات مرة قال لها فجأة بعد صمت طويل:

– كم أتمنى لو كنت بجانبهم دائماً لرعايتهم.

وساد الصمت بعدها طويلاً، ولم تعلق على كلماته، ولكنها شعرت بأن في أعماقها كنوزًا من الحنان لم تبذلها لرجل لأنها لم تتزوج.. وأن لديها من المواهب ما كانت حرية أن تحيط به رجلاً أعظم وأرق.. لو أنها تزوجت رجلاً من طراز بينج.

وبعد أسبوع ثالث بدأت تخرج به للنزهة في الأيام المشمسة في أنحاء الريف المحيطة بالمدينة، وذات مرة قال لها فجأة:

– هناك شيء يا مارجريت يلح على خاطري وأريد أن أفضى به إليك، بل يجب أن أفضى به إليك، فهل لديك مانع؟

– كلا إن كان لابد لك من ذلك.

ومضت دقيقة قبل أن يقول لها:

– المسألة تتعلق بأول مرة رأيتك فيها.. لقد رأيتك تتحاشين الإجتماع بي وترتبين الأمور بحيث أكون دائماً مع ليلى.. وبطبيعة الحال.. أيقنت أنك تنفرين مني.

ولم تقل شيئاً، ولكن قلبها أخذ يدق دقاً عنيفاً اختلجت له عروق دماغها:

– ولو لم أكن موقناً من هذا لكنت أنت التي طلبت يدها.

وبلا تردد أجابته وكأن واجبها الأول أن تصدقه القول بصراحة:

– ولو أنك طلبت يدي لقبلت.

– يا إلهي! أكنت تقبلينني حقاً؟

– نعم، وأنت قلت إنك تريد أن تخبرني لتخلي ذهنك من هذه. الرغبة الملحة. والآن فلنترك هذا الموضوع ولا نعود إليه.

– ولكن..

– ليس الآن على الأقل.

وعادت به إلى بيته ثم أسرعت عائدة إلى بيتها، وكان القمر يتوسط السماء وهي تخترق التلال بسيارتها، وراودتها نفسها أن تنزل وتتسلق تل ستاو في قفزات متلاحقة تعبر بها عن فرحها الظافر. إذن كان بينج يريدها هي، وقد ظنته يفضل ليلى فكتمت هواها وتعمدت أن تتحاشاه.. ولكن هذا كله تاريخ قديم، ولا فائدة من مناقشته.

وفي الصباح ذهبت إلى جلوسستر لتراه كالعادة فبادرتها الممرضة بأنه نام نوماً سيئاً، ولكن عندما انفردت به مارجريت قال لها باسماً:

– الممرضة تظنني أسوأ حالاً اليوم، وهذا غير صحيح، فكل ما هناك أن خاطراً يلح على ذهني ولن أستريح حتى أطلعك عليه.

– تكلم إذن لتستريح، ولكن لا تجهد نفسك.

– تذكرين حديث الأمس، لقد بدا لي غريباً أننا قضينا هذه السنين كلها، وكل منا مخدوع في فهم شعور صاحبه، وشغلني التفكير في ذلك، وتساءلت هل فات أوان إصلاح ذلك الخطأ القديم؟

– كلا بالطبع، لقد انتهى هذا الماضي وسنكون صديقين حميمين جداً في المستقبل.

– أخشى أنك لم تدركي مرمى كلامي.

– حقًا؟

– كلا، إني يا مارجريت أسألك بصراحة هل لديك مانع الآن من الزواج بي؟

فشحب لونها لأنها طرحت من ذهنها منذ سنوات كل احتمال للزواج، كانت أحياناً تتمنى لو أنها تزوجت، لا أن تتزوج الآن، وفطن إلى شحوبها فقال:

– إذا كنت ترين هذا مستحيلاً كل الإستحالة، فعليك أن تصارحيني الآن بذلك وسأحاول أن أطرد المسألة من ذهني، وأعدك ألا أعود إلى إثارتها.

– أتعني هذا حقاً يا بينج؟

– بكل صدق وإخلاص، هل أدهشك الطلب؟

– لقد بدا مستحيلاً، بالنسبة لسننا.

– إننا لم نتجاوز سن الإهتمام بالحياة، صارحيني برأيك؟

– لم يتسع لي الوقت للتفكير، ويجب أن أفكر ملياً.

– هل ستفكرين جدياً حقاً؟

– نعم.

– ومتي تبلغينني رأيك؟

– متى وصلت إلى قرار، وربما كان ذلك غداً.

وتلك الليلة أخذت تسأل نفسها، أنه في الخامسة والخمسين وهي في الخمسين، وأمامهما نحو عشرين سنة يتم فيها نمو الأولاد ويتزوجون، ويجتاز فيها المصنع الأزمة وتزدهر أحواله، ويعود فيها بينج إلى التوفيق، وإن لم يحقق فيها شيئاً من آماله الضخام.

إنها لا تنوي أن تتحكم فيه أو توجهه، ولكنها ستستخدم تأثيرها المهدئ عليه وعلى أولاده، وربما أقنعته باعتزال السياسة نهائياً، ولكن ماذا سيقول بومي؟ ماذا ستقول أمها؟ ماذا سيقول بيتر وجون؟ إنهم سيقولون جميعاً أنه زواج مصلحة أو زواج عقل، ولكنها تعلم أن فيه أكثر من العقل والمصلحة.

وتمنت أن يظل الأمر سراً بينهما بعض الوقت، فإن لغط الناس وتهانيهم قد تثير أعصاب بينج وهو في طور النقاهة، وفي الصباح زارته فأنبأتها الممرضة أن نومه كان قلقاً، فلم تعجب وأيقنت أن قلقه سيزول.

وبمجرد انفرادهما معاً قالت له بكل بساطة وعلى الفور:

– إني أحمل إليك جوابي يا بينج، سأتزوجك.

وأثلج صدرها أن ترى ابتسامته الصامتة البطيئة تتسع حتى تغمر وجهه الكبير كله ولمعت عيناه، وأشرقت أساريره، فسألته:

– أراضٍ أنت الآن؟

فقال متلعثماً:

– نعم، كل الرضا.

– وكذلك أنا.

ومرت الأيام وهي تشعر بإحساس غريب مصدره ذلك السر الذي بينها وبين بينج. وأنها بعد كل هذه السنوات ستتزوج أخيراً، ومع تقدم

صحة بينج صارت حالتها النفسية أشبه بحالة فتاة من طالبات المدارس في عطلة.

وكانت هناك أشياء كثيرة جداً يجب الاتفاق عليها وإعدادها ومناقشتها، وفي الرحلات الكثيرة التي صحبته فيها بين أرجاء الريف كانت هذه الموضوعات تشغل وقتهما، وذات مرة اقترحت عليه أن يكون شهر العسل رحلة طويلة بطيئة حول العالم، وبطبيعة الحال كانت هناك صعاب لابد من تذليلها، فمن الذي سيعنى بأمها أثناء غيابها؟ ومع هذا كانت مناقشة الرحلة كأنها شيء سيحدث فعلاً أمراً ساراً بهيجاً، واشتريا الخرائط وكتب الرحلات، ورتبا كل دقائق الرحلة وتفاصيلها، مع أن الموضوع كله لا يمكن البت في تنفيذه إلا بعد استشارة السيدة العجوز.

وفي عطلة منتصف العام عاد بيتر إلى البيت وجمعتهما جلسات ودية كثيرة ناقشا فيها آراءه السياسية، ولم يستطع إقناعها على طول الخط ولكنها لم تكن متحيزة ضد آراءه على كل حال. فكان دائماً يبتسم ويقول لها:

– أعتقد إنك أقرب إلى الإتفاق معي.

– أنا في الحقيقة أقرب إلى الاتفاق مع كل إنسان.

والواقع أن هذه الآراء الجديدة أثرت في تفكيرها فبدأت تنظر إلى الناس على أساس جديد، هو أساس تكافؤ الفرص وحق جميع الناس فيه.

أما بقية الأولاد فكان سلوكهم نحو بينج مرضياً للغاية، لقد أصبحت الحواجز بينه وبينهم أقل. واجترأوا ليلة عيد الميلاد على الصخب، ودخل معهم بينج في مباراة للبليياردو، وبعد انصرافهم إلى مخادعهم صبت لنفسها وله كأسين كبيرتين، وكانت يدها ترتجف فقال لها:

– أراك مستثارة الأحاسيس!

– بل إني سعيدة للغاية، سعادة هؤلاء الأطفال تسعدني.

– أعتقد أنك ستتزوجينني محبة فيهم.

– وأنت لماذا تتزوجني إذن؟

– لماذا؟ لإننا سنكون أحمقين لو مضى كل منا يعيش بمفرده بقية عمره.

– هذا سبب وجيه ومعقول وفيه الكفاية.

نعم إنهما أسن من أحاديث الغرام، فالغرام خارج برنامجهما، ولكنها ليست صحبة خالية من الود والتكافل.

وفي بداية العام أنبأت أمها، فتقبلت النبأ ببساطة، إنها لم تعد تكترث كثيراً لما يصنعه الناس، وفي ذلك اليوم رن جرس الهاتف وكان المتحدث بومي :

– تعالي بسرعة حالة بولين سيئة وقد بعثنا في طلب الطبيب ولما وصلت إلى بيت بومي وجدته هو في حالة سيئة، كانت أعصابه على شفا الانهيار.

وبعد قليل ولد الطفل وكان غلاماً، ولكن بولين ماتت!

ووجدت نفسها أمام موقف جديد أمام أخ عاش طول حياته معتمداً عليها، وهو الآن مترمل له طفل يتيم، وليس لهما في الحياة من أحد سواها.

كان بومي أشبه بطفل مسلوب الإرادة لابد أن تلازمه وترعى حركاته وسكناته وتطعمه وتهدهده وتكفكف عبراته، وصحبته معها ليقيم في هاي ستاو هو وطفله، وفي هاي ستاو ثاب إلى عاداته القديمة واطمئنانه القديم، وجعل يقول لها:

– لا أدري ماذا يكون مصيري لولاك يا مارجريت؟

وعندما جاء بينج للعزاء كانت نظرة واحدة إلى عينيها كافية كي يفهم كل شيء، كي يفهم أن واجباً آخر قد استأثر بها دونه في آخر لحظة، وأطبق جفنيه وهو يشد على يدها بحرارة، فقالت همساً بصوتها الهادئ المطمئن:

– سنكون دائمًا صديقين حميمين، ينبغي أن يكون هذا كافيًا.

وهز رأسه ولم يتكلم، فقالت:

– يجب يا بينج ولابد..

فابتسم ابتسامته البطيئة وقال:

– نعم، لابد..

– ولابد أيضاً أن تستعيد صحتك لتشرف على العمل، فحالة بومى لا تسمح له في الوقت الحاضر بنشاط يذكر.

فازدادت ابتسامته اتساعاً وهو يقول لها:

– كلانا يجب أن ينهض ويواصل الكفاح، فمن سوانا يستطيع؟

الفهرس